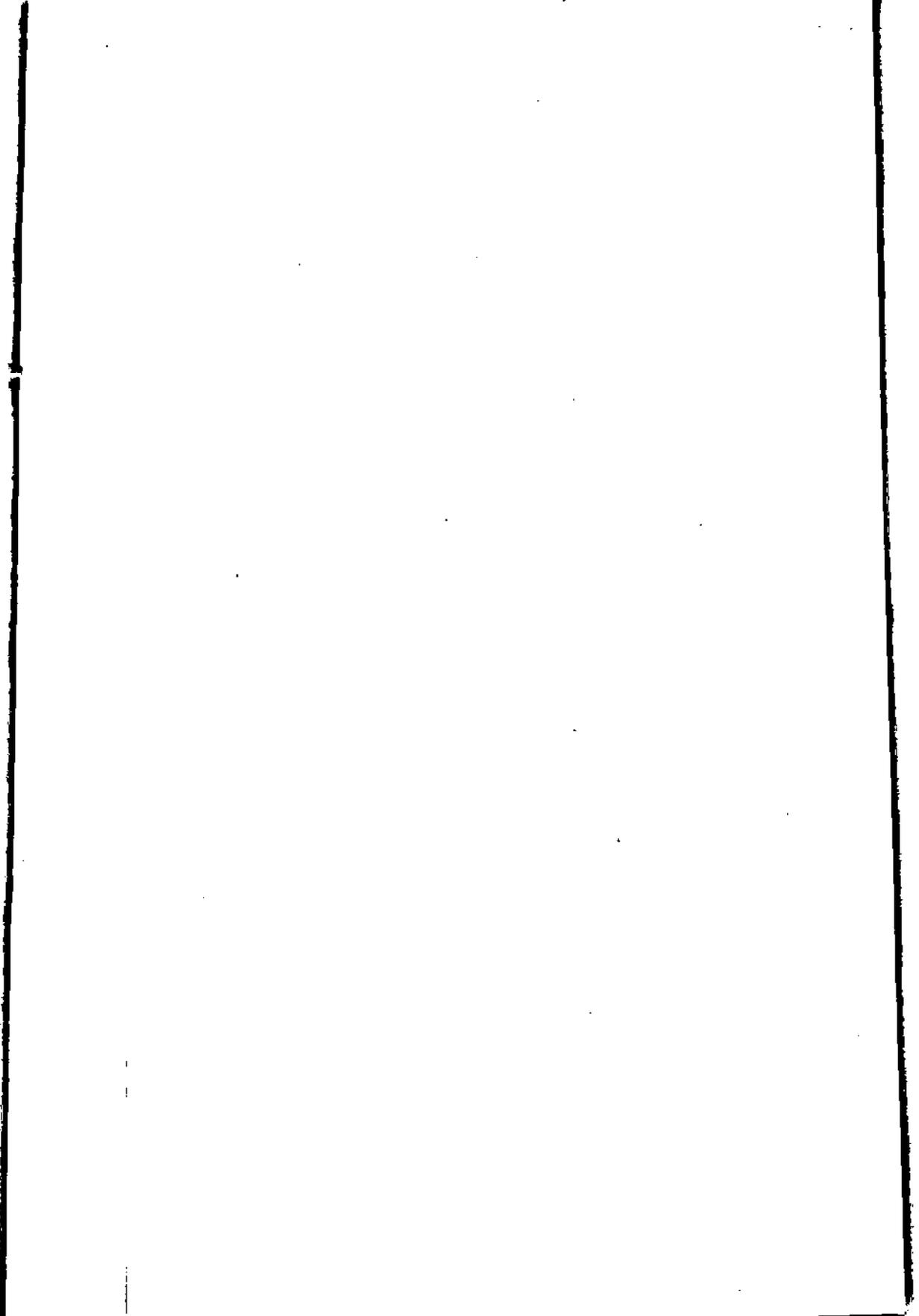


المَبَابُ السَّادِسُ

تَطَوُّرُ الْغُلُوِّ



# الفصل الأول

## غلاة الجعفرية

### الخطابية

بينما كانت الإمامية تشق طريقها المنهجي ، وافتق كما قلنا مراراً رجالاتها وعلمائها المذهب ، ويضعون أركانه ، ويتبنون نظريات فلسفية - رواقية وأرسططاليسية أحياناً ، لتدعيم المذهب - كان الغلو الشيعي يأخذ مداه الخفيف في الكوفة مرة ثانية ، فلم يته الغلو بمقتل أبي منصور العجلي ، ولا بمقتل عبد الله ابن معاوية ، بل ظهر في أبشع صورة لدى شخصية احتلت أكبر مركز في تاريخ الغلاة ، وأقلقت مضجع الدولة ، كما أقلقت مضجع الإمام جعفر الصادق في بيته الهادي في المدينة ، أما هذه الشخصية فهي شخصية أبي الخطاب الأسدي (المقتول عام ١٣٨هـ).

أما اسمه الكامل فهو محمد بن مقلص أبو زينب الأسدي الكوفي الأجدع الزرادي البزاز - ويكنى تارة أبا الخطاب وأخرى أبا الظبيان وثالثة أبا إسماعيل ، وقد نشأ بالكوفة ، ثم تردد على الإمام جعفر الصادق وأخذ عنه ، وقد وردت روايات متعددة عن مقامه لدى الإمام .

أما الأولى : « قال غيبة قال لي : أبو عبد الله (جعفر الصادق عليه السلام) : أي شيء سمعت من أبي الخطاب . قال : سمعته يقول : إنك وضعت يدك على صدره وقتلت له «عه ولا تنس» وإنك تعلم الغيب . وإنك قلت له : هو غيبة علمنا وموضع سرنا وأميرنا على أحيائنا وأمواتنا .

أما الثانية فهي للخصبي النصيري قال : جعفر قال لأبي الخطاب : يا محمد : أخطبك بما خاطب به رسول الله ﷺ سلمان . وقد دخل عليه عند أم أيمن وقال : أصبحت يا سلمان غيبة علمنا ، ومعدن سرنا ، وجمع أمرنا ونهينا ، ومؤدب المؤمنين بآدابنا . أنت والله الباب الذي يؤدي إلى علمنا . وفيك ينبأ علم التأويل والتزويل وباطن السر وسر السر ، فيوركت أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً وحياً وميتاً . فقال رسول الله هذا القول لسلمان وقتله أنا لك يا أبا محمد (١)

(١) ماميينون : شخصيات تلفة ص ٤٧ ، ٤٨ .

والنص الأول عن عنبسة الناووسى والثانى عن الحنصبي النصيرى . وكلاهما غاليلان ، وروايتها مردودة . وفى النصين عمالة لأسلوب جعفر ، فهل هما لجعفر فعلاً ، حينما كان أبو الخطاب يتردد عليه ويتابعه فى اقتصاد ؟

إن الكشى - وهو مؤرخ رجال الشيعة ، يذكر أن هذه الأخبار التى رواها أبو الخطاب عن جعفر قد عرضت على الإمام نفسه فكذبها وأنكرها ، بل إن الإمام جعفرأ قال : ما مس شىء من جسدى جسده إلا يده<sup>(١)</sup> . كما يذكر الكشى أن الإمام جعفرأ قال : « اللهم العن أبا الخطاب ، فإنه خوفنى قائماً وقاعداً وعلى فراشى اللهم أذقه حر الحديد<sup>(٢)</sup> ثم أورد روايات متعددة تدل على ذمه<sup>(٣)</sup> . وأياً ما كان الأمر ، فإن أبا الخطاب الأمدى قد تردد على جعفر الصادق بعض الوقت ، ثم عاد إلى الكوفة ، وأخذ ينشر مبادئه ويكون فرقة وقد التف حوله وآمن بدعوته بعض فلول المنصورية من أتباع أبى منصور العجلي ، كما أن فلول الجناحية من أتباع عبد الله بن معاوية قد أسرعت إليه ، وكان الرجل على مهارة وذكاء ودقة ومرونة فى تنظيم الدعوة ، وكان يدعو أولاً باسم جعفر الصادق ، ويبدو من رواية الكشى أن أول دعوته هى نسبة العلم الغيبى إلى جعفر ، فلما « وقف الصادق على غلوه الباطل فى حقه ، تبرأ منه ولعنه ، وأخبر أصحابه بالبراءة منه ، وتشدد القول فى ذلك ، وبالغ فى التبرئ منه واللعن عليه<sup>(٤)</sup> . وثبت تماماً أن الرجل اتصل بجعفر أول الأمر ، وأن جعفرأ قد قربه إليه ما يذكره أحد أتباع جعفر وهو عيسى بن أبى منصور شلقان لإسماعيل بن الإمام جعفر « قلت لأبى الحسن - وهو يومئذ غلام قبل أوان بلوغه : جعلت فداك ما هذا الذى يسمع من أبيك (جعفر) إنه أمرنا بولاية أبى الخطاب ، ثم أمرنا بالبراءة منه . فقال أبو الحسن من تلقاء نفسه : إن الله خلق الأنبياء على النبوة . فلا يكونون إلا أنبياء . وخلق المؤمنين على الإيمان فلا يكونون إلا مؤمنين . واستودع قوماً إيماناً ، فإن شاء أتمه وإن شاء سلهم إياه . وإن أبا الخطاب كان ممن أعاره الله الإيمان فلما كذب على أبى سلبه الله الإيمان<sup>(٥)</sup> » .

هذه هى أول الدعوة ، وكان جعفر الصادق يكره نسبة العلم الغيبى إليه - وكان أبو الخطاب ينسب إلى جعفر أيضاً معرفة الاسم الأعظم ، وأنه علمه إياه وجعله قيمه ووصيه من بعده<sup>(٦)</sup> . ثم حين تبرأ منه جعفر ادعى الأمر لنفسه ، ويذهب القاضى أبو حنيفة النعمان لإسماعيل إلى أن

(١) الكشى : معرفة الرجال ص ١٨٨ وانظر أيضاً الذكور الشيعى : الصلة بين التصوف والشيع ص ١٤٢ .

(٢) الكشى : معرفة الرجال ص ١٨٧ - ١٨٩ .

(٣) الشهرستانى : الملل : ج ١ ص ٣٠٠ .

(٤) الكشى : معرفة الرجال ٢١١ .

(٥) التوحيتى : فرق الشيعة ص ٤٢ .

أبا الخطاب كان من أجل دعاة جعفر الصادق « فأصابه ما أصاب المغيرة فكفر وادعى أيضاً النبوة وزعم أن جعفر بن محمد إليه ، ثم استحل المحارم كلها ورخص فيها . ويذكر أن أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة أتوه . وقالوا : يا أبا الخطاب . خفف علينا ، فأمرهم بتركها ، حتى تركوا جميع الفرائض واستحلوا جميع المحارم وارتكبوا المحظورات ، وأباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور وقال : من عرف الإمام فقد حل له كل شيء كان حرم عليه ، فبلغ أمره جعفر بن محمد ، فلم يقدر عليه أكثر من لعنه وتبرأ منه وجميع أصحابه فعرفهم بذلك ، وكتب إلى البلدان بالبراءة منه واللعنة عليه (١) .

أما النوبختي الاثنا عشرى فقد ذهب إلى أن أبا الخطاب كان يدعى أن جعفر الصادق جعله قيمة ووصيه من بعده ، وأن جعفر علمه اسم الله الأعظم ثم ترقى إلى أن ادعى النبوة ثم ادعى أنه من الملائكة وأنه رسول الله إلى أهل الأرض والحجة عليهم » ثم قالوا - أى الخطابية - « إن أبا الخطاب نبى مرسل أرسله جعفر وأمر بطاعته وأحلوا المحارم من الزنا والسرقه وشرب الخمر وتركوا الصلاة والصيام والحج وأباحوا الشهوات بعضهم لبعض . وقالوا : من سأله أخوه ليشهد له على مخالفته فليصدقه ويشهد له ! فإن ذلك فرض واجب وجعلوا الفرائض رجلاً سموهم والفواحش والمعاصي رجلاً وتأولوا على ما استحلوا قول الله تعالى ( يريد الله أن يخفف عنكم ) وقالوا خفف عنا بأبي الخطاب ووضع عنا به الأغلال والآصار - يعنون الصلاة والزكاة والصيام والحج - فن عرف الرسول النبى الإمام فليصنع ما أحب » (٢) .

ويبدو أن دعوة أبى الخطاب لم تصل إلى هذا الحد في مرحلتها الأولى . فإذا كان أبو الخطاب حقاً من أجل دعاة جعفر ، فما كان جعفر يسكت أبداً عنه منذ البداية ، وقد كان لجعفر عيون وأنصار ورجال من كبار المتكلمين في الكوفة .

بل يبدو أن تلك كانت المرحلة الثانية في دعوة أبى الخطاب ، حين تبرأ منه جعفر . بدأ ينظم الدعوة لنفسه ، ويستغل كل ما وصل إليه من عقائد الغلاة من قبله ، وبدأ يقيم هذا المجتمع الباطنى الإياحى حوله ، ولم تكن سوى امتداد لمجتمع غال تكرر مراراً في الكوفة . وأعلن أبو الخطاب ، كما أعلنت الخطابية من بعده أن الإمام جعفر بن محمد الصادق أودعهم الجفر ، وفيه كل ما يحتاجون من علم الغيب وتفسير القرآن (٣) . وهذا يدل دلالة واضحة على أن مركز الدائرة في دعوة أبى الخطاب إنما كانت في نسبة الغيبى والسرى إلى جعفر ، وأن جعفر أودعه أبا الخطاب . ثم غلا في تصويره لحقيقة

(١) القاضى النعمان : دعائم السلام ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) النوبختى : الشيعة ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) المقرئى : الحطط ج ٢ ص ٣٥٢ .

الإمام الذي أحبه . ويذكر أبو خلف القمي عنه أنه قال : « رأيت أبا عبد الله (أى جعفرأ الصادق) في الحجون جالساً . فقلت له : يا سيدي أرني نفسك في عظمتك وملكوتك فقال له : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبي . قال فبسط يده على الأرض فإذا السموات والأرضون والخلائق في قبضته . ثم قال : فأرني ركن الحجر الأسود ، فإذا البيت قد رفعه على أصبعه في الهواء ، وإذا من حوله قردة وخنائير . وإذا موضع البيت بحجرة قطران أسود . ثم رده كما كان . وقال : هذا مركز الشيطان ومأوى إبليس (١) . فلما انفصل الرجلان بدأ أبو الخطاب يضع دعوته النهائية ، وبأخذ جملة آراء المغيرة والمنصورية .

### آراء أبي الخطاب الأسدي :

يذهب الشهرستاني إلى أن أبا الخطاب كان يعلن أن الأئمة أنبياء ثم انتهى إلى القول بأنهم آلهة . أى أنه نادى بإلهية جعفر بن محمد وإلهية آباءه ، وأنهم أبناء الله وأحيائه . والإلهية نور في النبوة ، والنبوة نور في الإمامة ، ولا يخلو العالم من هذه الآثار والأنوار . وزعم أن جعفرأ هو الإله في زمانه ، وليس هو المحسوس الذي يرونه ، لكن لما نزل إلى هذا العالم ، لبس تلك الصورة قرآه الناس (٢) . هذا هو نقل الشهرستاني للمذهب ويبدو أن الرجل كان يؤمن بنظرية « الحلول » أن الله نور من الأنوار ، وأن هذا النور يحمل في الأنبياء والأئمة ، بل إن البغدادي نفسه يضعه في فرقة الحلولية ، (٣) ونحن نعلم أن نظرية النور المحمدي كانت قد بدأت في عصر جعفر الصادق ، وتكلمنا عن أصلها الأفلاطوني المحدث ونظرية الكلمة المسيحية اختلط هذا كله في مذهب أبي الخطاب مع نظرية النور الثبوتية الغنوصية . غير أنه ينبغي أن ننضم في ضوء النصوص المتعارضة آراء أبي الخطاب الأسدي في حقيقة الأئمة . أن الأشعري ، وهو أقدم من البغدادي والشهرستاني يقول إن الخطايا تزعم « أن الأئمة أنبياء محدثون ورسل الله وحججه على خلقه ، ولا يزال منهم رسولان واحد ناطق والآخر صامت ، فالناطق محمد ﷺ ، والصامت على بن أبي طالب ، فهم في الأرض اليوم طاعتهم مفترضة على جميع الخلق يعلمون ما كان وما سيكون وما هو كائن (٤) . وتكاد تجمع المصادر على أن أبا الخطاب هو أول من نادى بنظرية الإمام الناطق والإمام الصامت ، وتنسب إليه القول بأنه لا بد من رسولين في كل عصر ، ولا تخلو الأرض من واحد ناطق، وآخر صامت وقال في ذلك الآية « ثم أرسلنا رسلاً تترى (٥) .

(١) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٥٥ . (٢) البغدادي : الفرق ص ١٣٨ .

(٣) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٣٠٠ % ٣٠١ . (٤) أبو خلف القمي : المقالات ص ٥١ .

(٥) البغدادي : الفرق ١٣٧ .

وضيف البغدادي إلى هذا أنهم قالوا إن علياً صار بعد النبي ﷺ ناطقاً ، وهكذا يقولون في الأئمة إلى أن انتهى الأمر إلى جعفر ، وكان أبو الخطاب في وقته إماماً صامتاً وصار بعده ناطقاً (١) . هل كانت هذه هي دعوة أبي الخطاب ، وهل ادعى أنه حجة الإمام النبي ووصيه وقيمه ٢ أم أنه ادعى أنه نبي ، كما ادعى أن جعفر هو الإله في زمانه ، وليس هو المحسوس الذي يروونه ، ولكن لما نزل إلى هذا العالم ، ليس تلك لصورة ، فراءه الناس فيها (٢) « النصوص متعارضة ومتناقضة ، فبينما يذكر أنه كان يقول بأن جعفر نبي ، وأنه من الرسل فرض على الناس طاعة أبي الخطاب يذكر أن الأئمة آله ، وأن أبا الخطاب إله ، ويذكر « ولد الحسين أبناء الله وأحباؤه وكذلك أبو الخطاب » - ويذكر أنهم تأولوا في ذلك قول الله تعالى ( فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ) وهذا آدم ونحن - أي الخطائية أولاده - وأخيراً إن الخطائية عبدوا أبا الخطاب ، وزعموا أنه إله وزعموا أيضاً أن جعفر إلههم أيضاً ، إلا أن أبا الخطاب أعظم منه وأعظم من علي (٣) . ويذكر أقدم مؤرخ شيعي - وهو أبو خلف القمي أن أبا الخطاب ادعى أنه جعفر بن محمد وأنه يتصور في أي صورة شاء . وذكر بعض الخطائية أن رجلاً سأل جعفر عن مسألة وهو بالمدينة . فأجابها فيها . ثم انصرف إلى الكوفة . وسأل أبا الخطاب عنها . فقال له : أو لم تسألني عن هذه المسألة بالمدينة فأجبتك فيها (٤) .

أين الحق في كل هذا ؟ فالأئمة أولاد أنبياء ثم آله وأبو الخطاب حجة وقيم ، ثم نبي ، ثم إله . والأئمة أبناء الله وأحباؤه وكذلك أبو الخطاب .

إن هذا التناقض فيما نقل إلينا من أخبار متعارضة عن أبي الخطاب الأسدي يجعلني أشك تمام الشك فيما أحيط بالرجل من أماطير غالبية ، تكاد تجمع عليها مصادر السنة والشيعية الإمامية معاً ويجعلني أرجح أن ثمة خلافاً كبيراً بين أبي الخطاب نفسه وبين الخطائية من بعده . ونستطيع أن نتبين طريقنا خلال شواهد ثلاثة تركها لنا التاريخ فيما ترك من أخبار .

أما الشاهد الأول : فهو أبو خلف القمي - المؤرخ والمتكلم الشيعي القديم . فبينما يذهب في نص من النصوص إلى أن أبا الخطاب كان يدعى « أن جعفر المصدق جعله قيمه ووصيه من بعده ، وعلمه اسم الله الأعظم ، ثم ترقى إلى أن ادعى النبوة ثم ادعى الرمالة ، ثم ادعى أنه من الملائكة ، وأنه رسول الله إلى أهل الأرض والحجة عليهم » يذهب في نصوص أخرى إلى أن الرجل قد نهى عن كل هذا . فهو يشرح لنا قصة معمر بن خيثم أحد الغلاة والمتسين إلى الخطائية . فيقول : إن هذه الفرقة جعلت جعفر ابن محمد الهاشمي أن نور الله نور يدخل في أبدان الأوصياء فيحل فيها ، فكان ذلك النور في جعفر ،

(١) البغدادي : الفرق ص ٥١ .

(٢) الشهرستاني : الفرق ج ١ ص ٣٠٠ / ٣٠١ .

(٣) الأشعري : مقالات : ج ١ ص ٦ .

(٤) أبو خلف القمي : المقالات ص ٥١ .

ثم خرج منه فدخل في أبي الخطاب ، فصار جعفر من الملائكة ثم خرج من أبي الخطاب ، فدخل في معمر وصار أبو الخطاب من الملائكة (١) . ثم خرج أحد أتباع معمر ويدعى بابن اللبان يدعو إليه «وصلى له وصام وأحل الشهوات كلها ما حل منها وما حرم ، وليس عنده شيء محرم وقال : لم يخلق الله هذا إلا لخلقه ، فكيف يكون محرماً ، وأحل الزنا والسرقه وشرب الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير ونكاح الأمهات والبنات والأخوات ونكاح الرجال ، ووضع عن أصحابه الجنابة وقال : كيف أغتسل من نطفة خلقت منها ، وزعم أن كل شيء أحله الله في القرآن وحرمه فإنما هو أسماء رجال» (٢) هذه هي آراء تلك الفرقة المعمرية ، عقائدها وعبادتها وطقوسها الوثنية الغنوصية . ومن العجب أن أبا خلف القمي يذكر أن من أنكر على معمر عقائده وتبرأ منه ولعنه هاجع جعفر الصادق وأبو الخطاب الأسدي فيقول «وخاصمه قوم من الشيعة وقالوا لهم إن الذين زعمتم أنها صارا من الملائكة قد برثا من معمر وبزيع وشهدا عليها كافران شيطانان وقد لعناهما ، فقالوا إن الذين ترونها جعفر وأبا الخطاب شيطانان تمثلا في صورة جعفر وأبي الخطاب يصدان الناس عن الحق ، وجعفر وأبو الخطاب ملكان عظيمان عند الإله الأعظم إله السماء ومعمر إله الأرض ، وهو مطلع لإله السماء يعرف فضائله وقدره» (٣) . ويتبين واضحاً من هذا النص أن أبا الخطاب الأسدي نهي كما نهي جعفر عن دعوى معمر وبزيع الغالية ، وأن أبا الخطاب تبرأ كما تبرأ جعفر من كل من معمر وبزيع وقد دعا هذا إلى اعتبار جعفر الصادق وأبا الخطاب شيطانين متمثلين في صور بشرية .

وأما الشاهد الثاني : فهو قصة القتال الذي حدث بين أتباع أبي الخطاب الأسدي وبين عيسى بن موسى أمير الكوفة من قبل أبي جعفر المنصور . فقد بلغ هذا الأمير أن الخطابية أتباع أبي الخطاب مجتمعون في المسجد يدعون إلى أبي الخطاب فبعث إليهم ، فحاربوه وامتنعوا عليه ، وكانوا سبعين رجلاً فقتلهم رجال عيسى بن موسى جميعاً ، ولم ينج منهم إلا رجل واحد أصابته جراحات فعد في القتلى فتخلص وهو أبو سلمة سالم بن مكرم الجمال الملقب بأبي خديجة ، وسالم بن مكرم كان من رجال الحديث الشيعي ووثقه النجاشي في رجاله .

ويذكر المؤرخون أن أبا الخطاب وأصحابه حاربوا رجال عيسى بن موسى حرباً عنيفة شديدة بالحجارة والقصب والسكاكين ، لأنهم جعلوا القصب مكان الرماح . وقد كان من أبي الخطاب أن قال لهم «قاتلوهم فإن قصبكم يعمل فيهم عمل الرماح والسيوف ورماحهم وسيوفهم وسلاحهم

(١) أبو خلف القمي : المقالات ص ٥٣ وانظر أيضا التوحيدي : فرق ٤٢ .

(٢) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٥٣ ، والتوحيدي : فرق ص ٤٤ .

(٣) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٥٣ ، والتوحيدي : ص ٤٢ .

لا تضركم ولا تحمل فيكم ، وأخذ يقدم منهم عشرة عشرة للمحاربة ، فلما قتل منهم نحو ثلاثين رجلاً قالوا له : ما ترى ما يحل بنا من القوم . وما ترى قصبنا يعمل فيهم ولا يؤثر . وقد عمل سلاحهم فينا وقتل من ترى منا ؟ فقال لهم : « إن كان قد بدا لله فيكم فما ذنبي » ثم قال : يا قوم قد بليتكم وامتحنتم وأذن في قتلكم ، فقاتلوا على دينكم وأحسابكم ولا تعطوا بلدتكم فقتلوا ، مع أنكم لا تتخلصون من القتل فقتلوا كراماً ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم . وأسر أبو الخطاب وقتله عيسى بن موسى مع مجموعة من أصحابه ، ثم صلبه وأحرقه (١) .

ويبدو واضحاً من هذه الصورة التي ذكرناها أن الرجل لم يدع ألوية أو نبوة ، وإنما كان يغلو في حب آل البيت وأنه حاول محاولة المختار بن أبي عبيد من قبل أو هو صورة منه . اتصل بالإمام الشيعي جعفر الصادق . كما اتصل المختار بمحمد بن الحنفية ، وحاول السيطرة على الكوفة كما حاول المختار . ولكن المختار كان أكثر فاعلية وقوة ، ثم نادى - كما نسب إلى المختار - بالبداء - بل يذهب بعض المؤرخين إلى أن البداء ظهر على يديه ، وأنه هو أول من بشر به . ثم نلاحظ أيضاً أنه كان من أتباعه سالم بن مكرم وهو محدث مشهور وأحد رجال جعفر الصادق ، بل إن جعفر الصادق هو الذي كتبه أبا سلمة ، مستبدلاً بها كنيته القديمة ، أبا خديجة ، ولقد بقي أبو سلمة سالم بن مكرم مع أبي الخطاب في قتاله الأخير حتى النهاية .

أما الشاهد الثالث : فهو أن جميع كتب الفرق بلا استثناء تنسب المذهب إلى أصحابه ولا تطلق على لسان أبي الخطاب إلا القليل . أما تبرؤ جعفر منه ، فقد كانت هذه هي خطة جعفر الصادق ، وهي إعلان التبري من بعض رجاله المخلصين حتى لا يضاروا أو يضار جعفر نفسه ، وقد فعل هذا مع زبارة بن أعين كما رأينا من قبل - ولعل جعفر قد مثل مع أبي الخطاب قصة محمد بن الحنفية مع المختار ، فمحمد بن الحنفية تبرأ - فيما يقال - من المختار . ولو ظاهرياً مع أن المختار كان من أخلص رجاله . وكذلك فعل جعفر مع أبي الخطاب . ويؤيد هذا ما يذكره الخطابية - بعد مقتل أبي الخطاب في تأويل الآية « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها . . . » أن السفينة أبو الخطاب ، وأن المساكين أصحابه ، وأن الملك الذي وراءهم هو عيسى بن موسى العباسي قاتل أبي الخطاب . وأن جعفر الصادق أراد أن يعيهم بلعنهم في الظاهر وفي الباطن يعني أضدادهم . ومن خالفهم (٢) . وكما نسبت إلى المختار الآراء الكيسانية نسبت إلى الخطاب الآراء الخطابية من بعده . غير أنه يبدو أن ثمة خلافاً حقيقياً قد حدث بين أبي الخطاب والأسدي وبين الإمام جعفر

(١) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٨١ ، ٨٢ .

(٢) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٥٥ .

الصادق ، وهو أن أبا الخطاب كان من محبي إسماعيل بن الإمام جعفر ، وكان جعفر الصادق بكره صلات ابنه - كما سئى بعد - بالغلاة مما يجعله يفكر في عزله عن إمامة الشيعة بعده وقد قتل أبو الخطاب في نفس السنة التي توفي فيها إسماعيل وحدث الانقسام وسرعان ما انضم الخطابية - منفذين لسياسة زعيمهم - لمحمد بن إسماعيل ونرى أن الإسماعيلية أطلقت أول ما أطلقت على الخطابية . يقول النوبختي « وأما الإسماعيلية الخالصة فهم الخطابية أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع ، وقد دخلت منهم فرقة في فرقة محمد بن إسماعيل وأقروا بموت إسماعيل بن جعفر في حياة أبيه » (١) . وقد لاحظنا من قبل أن أبا الخطاب الأسدي تكفى بأبي إسماعيل ، واضعاً بذلك أسس فكرة الأيوبة الروحية والتبني الروحي ، مما كان له أثر في عقائد الإسماعيلية - فيما بعد - علاوة على أنه ينسب إليه فكرة الناطق وفكرة الإمام الصامت .

ولقد كان لأبي الخطاب الأسدي المقام الكبير في تاريخ الشيعة - غلاة وإسماعيلية - ولقد وضع كما قلنا من قبل في موازاة « سلمان الفارسي » ولما كان سلمان « من أهل البيت » ، كان أبو الخطاب « مولى بني هاشم » . كما اعتبر سلمان ممثلاً لدور السين - كذلك اعتبر أبو الخطاب ممثلاً له . يقول ماسينيون : « وهذا الدور العالی دور السين ، أي دور التقب الموحى إليه ، هو الذي ادعاه أبو الخطاب - وكان لقبه في البدء مولى بني هاشم في سنة ١٣٨ هجرية بالكوفة قائلاً : إن الإمام جعفر اعترف له به - متخذاً صيغة أخرى مدسنة له - غنوصية زعم أن محمداً استخدمها متحدثاً عن سلمان . وقد أنكر الخطابية أن يكون آل علي قد قدر لهم قدراً سابقاً أن يكونوا أئمة بمجرد كونهم من نسله . وقالوا إن الاختيار الإلهي بالتبني الروحي هو وحده المعترف . وعلى هذا لقبوا سلمان لا بلقب محمدى وإنما بلقب - ابن الإسلام ، كما لقبوا خليفته أبا الخطاب بلقب - « أبي إسماعيل » (٢) وقد حاول ماسينيون جهده أن يثبت الموازاة بين سلمان وبين أبي الخطاب . يرى ماسينيون أن الإمامية - وهم بصدد تأمل رسالة سلمان الفارسي - إفترضوا صحة القول بأن روح التأويل التي تفتح لنا معاني الكتاب تمتاز سموً وعلوً من الروح - جبريل - التي نزلت على محمد ﷺ . إنها أعلى وأسمى لأنها روح الأمر المذكورة في القرآن « وحددوا روح الأمر بأنها هي نوع من الفيض الإلهي يحقق تدريجياً مقاصد الله الخفية . ورأت الإمامية أن سلمان إحدى وسائل روح الأمر وإحدى عللها الإلهية لدى الرسول على معاً .

هذه الروح تنفذ الأمور الإلهية ، وتفسر قواعد هذه الأمور الثابتة كهؤلاء الذين تختارهم وسائلها .

(١) أبو خلف القم : كتاب الثغلات ص ٨١ ، والنوبختي فرق ص ٦٩ .

(٢) ماسينيون : سلمان الفارس والبواكير الروحية للإسلام في إيران في كتاب « شخصيات قلعة الإسلام » ترجمة الدكتور

وبينما نجد استعمال التزئيل لا يسمح ولا يفغى سوى مكافحة أحد غير الملاحدة والمشركين ، نجد روح التأويل تسمح بتمييز نفاق المنافقين وأسرار الأفئدة ولعل ماسينيون يشير بأسلوبه الشرعى الخيالى إلى تلك الفكرة الإمامية التى استندت على قول عمار بن ياسر فى صفة « اليوم نقاتلكم على تأويله كما قاتلناكم من قبل على تزئيله » أو على الأثر المشهور « إننا كنا نعرف على المنافقين على رسول الله بيفضهم لعلى . وأياً ما كان الأمر فإن ماسينيون يذكر أن الإمامية ترى أن روح الأمر - روح التأويل - تتجسد فى كل جيل فى ممثلين للدراما الإنسانية لطاعة الله وأولئك الذين يتعرفون بالإمام الشرعى ومن ينكرونه دورة بعد دورة وأن هذه النظرية القائلة بدوام التصميم التاريخى وبالعود الدورى للنماذج الكتابية الدينية قد ظهرت سنة ٣٣٣هـ . حينما أعلن صعصعة بن صوحان أن الإمام - وقد كان فى البدء آدم - يجب أن يتعرف آتئذ فى على « ثم أتى المغيرة من الغلاة قبل عام ١٠٠هـ وأعلن أن المنكر الأول فى حياة على هو عمر ، وهو يوازى إبليس الأول المنكر فى حياة آدم وقد أنكر إبليس الثانى - أو المنكر الأول على على - ميثاق على ، ميثاق الله ، ثم تابعه أبو بكر المنكر الثانى ، ثم عثمان المنكر الثالث وهو يضع عمر أول المنكرين ، لشدة عداوته لعلى وفاطمة .

أما روح الأمر ، وأول المؤمنين فقد كان فى حياة على هو سلمان - كما ترى الإسماعيلية فيما بعد - ويرى ماسينيون أنه ومنذ بداية القرن الثانى أدمجت شخصية سلمان التاريخية فى النموذج الإلهى الأعلى الذى تجسده زمنياً والذى سيمسى من بعد باسم سلسل أو بأول حرف منه وهو السين . نعتقد أن أبا الخطاب (المتوفى سنة ١٩٣) هو الذى أدرك فى تلك الفترة رسالة سلمان بكل قوتها . وهو ألا يجعل نفسه روح الأمر مباشرة إنما يوجد بينه وبينها تدريجياً بعملية رفع روحى ، وبهذا يرفعه إلى مرتبة الألوهية فوق مرتبة الإمام . وهذا عنده خماس أعنى من خمسة أشخاص - محمد ، على ، فاطمة ، الحسن والحسين - وفى هذا نشاهد خماس المباهلة « يحاول ماسينيون إذن أن يجعل من أبى الخطاب الأسدى - فى عقيدة الشيعة - صورة أخرى من سلمان ذى الصورة الشيعية أيضاً . وأن أبا الخطاب أدرك قبل الإسماعيلية والدروز فكرة العين والميم والسين . العين هى النموذج الأول للإمام - ومثاله آدم فى مسألة السجود وعلى فى غدیر خم - وكان صعصعة بن صوحان أول من أعلن أمام معاوية نفسه سنة ٣٣هـ النظرية الشيعية التى تجعل من إمامة آدم وإمامة على (العين ، الصامت) شيئاً واحداً فكان حينئذ أحد الأفراد الذين قدروا مقام على الحقيقى فى ذلك الحين ، وينسب ماسينيون فكرة صعصعة إلى أستاذه سلمان الفارسى . العين يتربع فى الوسط ساكناً صامتاً ، مستوراً عتيداً مثل أمر الله وهو يهيمن على هيئة شخص واحد غالباً ، وأحياناً على هيئة خماس لرئيس القانون الإلهى ، والسين عند غلاة الشيعة هو المعنى الذى يضعه الله فى مركز الجماعة ، والحجاب المستور الذى يكشف

عن حضرة خفية ، وهو الجسد المتوارث للجنس المختار للإمامة ، أهل الاصطفائية بنى الصاد - ولكي يموت المرء مسلماً صحيحاً ، فن الضروري الإيمان به ومحبه في تجليات ظهوره المتقطعة المتواترة هذه التي تبدو بطريقة دور كعودة الهلال عودة العرجون القديم . الذي ينظم وحدة الأعمال الشرعية من صوم وحج . . . إلخ . ويحيا . كما يحيا الهلال بالتلبية والتهليل .

« والميم هو النموذج الأول للنبي - خصوصاً محمد ﷺ - متغير وناطق » ينشر بدعوته الأوامر الإلهية ، وهو يعين تشخص العين ويسيمه ، والميم حجاب حاجز يجب اجتيازه ، لأنه يجب .

والسين - وهو سلمان - هو النموذج الأول للأسباب ، وهي الروابط الحارقة التي بين السماء والأرض ، من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ « والسين - سبب الشدو التلقين ، تدعوا إلى سبيل الله بالحسنى والإقناع كما أن نداء المؤمن يذكى القلب بالصلاة ، وهو الباب الذي يدخل منه النور الشعشعاني ، أو منه يتصل المؤمن بالحضرة الإلهية ، ويحقق عمل الله ، ينفخ الروح مولداً الأبدان ، ومعلماً للنفوس ، وهو المقدره التي تمنح الوجود ، وسلسل أو السين يمنح الحكمة ويؤتي البرهان ، ويرى ماسينيون أن اللفظ سلسل قد تكون عن الكلمة سلسلة الواردة في القرآن في قوله « ثم في سلسلة ذراعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » وصيغت في حروف المذكور كما يكون حساب الحروف س + ل + س = ١٨٠ = س + ل + م + ن .

ويرى ماسينيون أن من هذا كله تنشأ تصورات ثلاثة مختلفة للروح الإلهي « ويلاحظ أنه على العكس مما تدعيه كتب الفرق السنية ، لم توجد فرقة شيعية مغالية ادعت بأن أحد هذه النماذج الثلاثة يمكن أن يكون الله بجمهره ، فعند جميع الغلاة أن الله لا يمكن معرفته في ذاته وهو فوق كل وصف وحد ، وإنما الأمر هنا أمر تأليه بالمشاركة ، ونوع هذه المشاركة يختلف وفقاً للنموذج الذي تفضله الفرقة .

حاول ماسينيون أن يثبت أن أبا الخطاب الأسدي قد أدرك هذه النماذج الثلاثة إدراكاً واعياً مطلقاً ، وأنه حاول تحقيقها في نفسه ، فهو السين كما رأينا . إنه يمثل دور الخضر مع موسى ووصيه ودور آصف مع النبي سليمان . جمع ماسينيون أقوال الإمامية المتأخرين وأقوال الدرور والعلبائية ، وحاول أن يبين أن هذا الاتجاه الغنوصي الخطير كان في يد سلمان الفارسي وتلميذه صعصعة بن صوحان ، ثم يد أبي الخطاب الأسدي فيما بعد . كان ماسينيون مصوراً بارعاً يرسم بريشته صورة سلمان ، مضيفاً عليها ما شاء من أصباغ وألوان ، وضعها المتأخرون من الإمامية والدرور على وجه الرجل الصالح ،

المهاجر من فارس وراء الحقيقة ، والذي أحب على بن أبي طالب ، لأن علياً كان أقرب الناس إلى الرسول .

لقد تناسى ماسينيون صورة أخرى لسلمان ، هي صورته السنية ومحبته لأبي بكر وعمر ، وتوليته المدائن للخليفة الثاني ، تجاهل ماسينيون - عن عمد - كثيراً من الحقائق التاريخية الثابتة عن هذا الصحابي الجليل ، لكي يرسم صورة معينة حدد هو إطارها من قبل ، لا تمت إلى الحقيقة التاريخية الثابتة لسلمان ، ثم حاول أن ينقل هذه الصورة لأبي الخطاب الأسدي ، ومن المؤكد أن كثيراً من الغنوصيات ظهرت في نظريات أبي الخطاب ، وأنه غلام أشد الغلو في جعفر الصادق ، غلواً ياباه أهل السنة والإمامية معاً ومن المحتمل أن يكون أبو الخطاب قد أعلن أن جعفر الصادق إله ، وأنه نبي ، ثم إنه من المحتمل أيضاً ألا يكون . ولكن ليس في كتابات الرجل ما يدل على معرفة بالمفهومات الغنوصية الغنية التي نقلها إلينا ماسينيون عن العين والسين والميم ، من كتابات المتأخرين من الإمامية والدروز كما أن ماسينيون نفسه ينكر على الغلاة القول بالوهية تلك العناصر - ثم يعود فيقول إن السنية عند أبي الخطاب معناها أن س . تصحح ، ملكاً ، ثم إلهاً . ولم يذهب بالوهية السين أي سلمان سوى السلمانية ، ثم الدرور .

ثم إذا كان هذا الثالث قد تحقق في عهد محمد ﷺ فكان العين «علي» هو النموذج الأول للإمام ، وكان الميم «محمد» هو النموذج الأول للنبي وكان السين «سلمان» هو النموذج الأول للأسباب ، فكيف تحقق هذا الثالث في عهد أبي الخطاب . إذا كان جعفر هو العين وسلمان هو «السين» فأين نجد «الميم» . لقد تصيد ماسينيون - مع الأسف - فكرة عبادة الميم والعين والسين أي فكرة عبادة محمد وعلي وسلمان عند الدرور ووضعها في قالب ثالث مسيحي وحاول أن يقرضها على آراء الشيعة الغلاة مبتدئاً بعهد الرسول ، متدرجاً بها في مختلف العهود . وقد فعل هذا بتصنع شديد وتكلف ظاهر - وهو في هذا يتأثر بعقيدته الكاثوليكية التي سيطرت على أبحاثه هنا ، كما سيطرت على أبحاثه في الحلاج . وأياً ما كان الأمر ، فقد أعلنت الشيعة الإمامية ثم خليفاتها الاثنا عشرية ، وأعلن أهل السنة والجماعة - وفي هاتين الفرقتين إجماع المسلمين على مدى الدور وهاتان الفرقتان الاثنا عشرية ، وأهل السنة والجماعة ، هما الحافظتان لحوزة الإسلام والمنافحتان عن عقائده في الألوهية والنبوة . أعلنتا البراءة من أبي الخطاب الأسدي وتكفيره وإخراجه من حظيرة الأئمة .

وقتل أبو الخطاب - كما قلنا - ولكن الرجل ترك أتباعاً كثيرين وفرقاً مختلفة اختلفت فيه وزادت . وقد وصف المقرئ هذه الخطابية «بأنهم أتباع أبي الخطاب محمد بن ثور - وقيل محمد بن يزيد الأجدع» وأن مذهبه هو «الغلو في جعفر بن محمد الصادق ، وهو أيضاً من المشبهة وأتباعه خمسون

فرقة، وهذه مغالاة من المقرئى أو خطأ نسخى فإن عدد فرقه خمس . ثم يرى المقرئى أنهم كلهم متفقون على أن الأئمة - كعلي وأولاده - أنبياء ، وأنه لا بد لكل أمة من رسولين أحدهما ناطق والآخر صامت ، فكان محمد ﷺ الرسول الناطق وعلى الرسول الصامت . ثم إنه يجمعهم جميعاً أن جعفرأ الصادق كان نبياً ، ثم انتقلت النبوة إلى أبي الخطاب ، وأن هؤلاء الأنبياء أى الأئمة - علمون بما هو كائن إلى يوم القيامة . ويزعم هؤلاء جميعاً أن جعفرأ الصادق قد أودعهم جلدأ - وهو الجفر ، فيه كل ما يحتاجون إليه من علم الغيب ، وفيه تفسير القرآن ومن الأمثلة التى قدموها للناس من هذا التفسير الجفرى . قول الله « إن الله يأمركم أن تدبحوا بقرة » أن البقرة هى عائشة ، وأن الحمر والميسر الواردين فى القرآن هما أبو بكر وعمر ، والحيت والطاغوت هما معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص (١) .

أما الأشعرى فقد اعتبرهم خمس فرق . أما الفرقة الأولى : فهى المعمرية ، (أتباع معمر بن خييم) وأهم آرائهم : أن الدنيا لا تفتنى - أى أنها أزلية سرمدية - وأن الجنة هى ما يصيب الناس من خيرات فى هذه الدنيا ، وأن النار هى ما يصيبهم من بلاء . ثم آمنوا بفكرة التناسخ وأداهم هذا إلى القول بأنهم خالدون لا يموتون ، ولكن ترفع أبدانهم إلى الملكوت ، وتوضع للناس أجساد شبه أجسادهم . ثم استحلوا سائر المحرمات من خمر وزناً ، كما دانوا بترك الصلاة (٢) وهذا هو المذهب السائد الذى ينسب دائماً إلى الغلاة ، مزيج من غنوصية مانوية ، ومسيحية ، فالتناسخ غنوصى والرفع مسيحى . وقد ذكرنا من قبل أن المعمرية تذهب إلى أن الله نور دخل فى أبدان الأوصياء ، دخل فى جعفر ثم خرج منه فدخل فى أبى الخطاب ، وصار جعفر من الملائكة ، ثم خرج من أبى الخطاب ودخل فى معمر هذه رواية يذكرها النوبختى ثم يضيف النوبختى رواية أخرى : وهى أن النور الذى هو الله دخل فى عبد المطلب ثم انتقل إلى أبى طالب ثم انتقل إلى محمد ، ثم انتقل إلى على ، ثم تناسخ فى الأئمة حتى انتقل إلى معمر . ورواية ثالثة : أن النور دخل فى أبى طالب - فهوإله ، ثم سكن فى محمد ﷺ وكان محمد هو الله الحق ، وكان على بن أبى طالب رسولأ ، فلما مضى محمد خرجت منه الروح ، فلم تزل تناسخ فى واحد بعد واحد حتى صارت فى معمر . ورواية رابعة تذهب إلى المعمرية تقول : إن قوالب هذه الروح لا تموت ولا تفتنى ، ولكنها تتحول إلى ملائكة وأنهم يرفعون إلى السماء ولا يموتون . يرفعون بأبدانهم وأرواحهم (٣) . هذه القول المتعارضة تجعلنا نشك فى كل ما تتضمنه ، وإنما من الأوفق أن نقول : إن معمرأ كان غنوصياً بلا شك ، آمن بنظرية النور المحمدى وانتقالها من نبي إلى نبي ، ثم نقلها إلى حجيج الإمام أو دعائه ، كما آمن بالتناسخ (٤) .

(١) المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ٣٥٣ . (٣) القمى : المقالات ص ٥٤ .

(٢) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ١١ . (٤) الدكتور عبد الرحمن بدوى : شخصيات قلقة ص ٣١ .

ويرى ماسينيون أن المعمرية سينية قالت بإله ونبي وإمام والإمام (سبعة أسباب : خماس المباهلة أو أصحاب الكساء المشهورين على وفاطمة والحسن والحسين وسلمان + ٢ أبو طالب وعبد الله) (١) ولكن عبد الله والد الرسول ﷺ ، لم يذكر إطلاقاً ، فهل يقصد ماسينيون عبد المطلب . ولعله أراد بهذا أن يجعل المعمرية أو اليعمرية - كما تدعى أحياناً - سلفاً للإسماعيلية ، ثم يتكرر هذا السباع في كل دورة وزمان . وهل يكون المذهب هو هذا كما قلت من قبل : النور المحمدي ، يتجلى في دورة دورة من دورات الأئمة ، على شكل سباع . إن النصوص لا تقدم إلى المذهب واضحاً . أما صلة هذه الفرقة بأبي الخطاب ، فقد قلنا - من قبل - إن أبا الخطاب قد تبرأ منها ، كما تبرأ جعفر ، وشهدا على معمر بأنه كاذب وشيطان .

ونتقل إلى فرقة أخرى (من تلامذة أبي الخطاب) : هي البزيفية أصحاب بزيع بن موسى . ويذهبون أيضاً إلى أن جعفرأ إليه ، ولكنه ليس هو الظاهر المرئي ، وإنما تشبه للناس بهذه الصورة . وهذا يعني أيضاً في لغة محايدة أنه يرى أن النور الإلهي قد حل فيه . وأن جعفرأ بعث أبا الخطاب بالرسالة ، ثم بعث بزيعا ، فأبو الخطاب وبزيع نبيان . بل ينقل الأشعري أن البزيفية تقول : « إن كل مؤمن يوحى إليه » واستندوا في هذا إلى تأويل الآيات « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله » أي يوحى من الله . والآية « وأوحى ربك إلى النحل » والآية « وإذا أوحيت إلى الحوارين » ويبدو واضحاً أننا أمام تفسير غنوصي للقرآن ، ونحن نعلم أن « الغنوص » هو إلقاء المعرفة اللدنية في النفس وأن دائرته مفتوحة لمن أراد من البشر أن يسلك طريقه . فهذا إذن نداء غنوصي واضح في العالم الإسلامي . وقد أدهم القول بالغنوص إلى أنهم أعلنوا أن منهم من هو خير من جبريل وميكائيل ومحمد ، وأنهم خالدون ، وأن أحدهم إذا بلغت عبادته مبلغها الأكمل ، رفع إلى الملكوت ، وادعوا معاينة أمواتهم وأنهم يرونهم بكرة وعشياً (٢) . وكل هذه أصول غنوصية ، نفذ الكثير منها بعد إلى التصوف الفلسفي ، وكانت الكوفة فعلاً بيئة سبخة لكل هذا . وقد تبرأ جعفر الصادق ، كما تبرأ أبو الخطاب من بزيع (٣) .

وأما الفرقة الثالثة : فهي العميرية أصحاب عمرو بن بيان العجلي ، ويبدو أن هؤلاء كانوا تلامذة أمناء لأبي الخطاب الأسدي ، لقد أنكرت هذه الفرقة التناسخ ، كما أنكرت الخلود في هذه الدنيا ، ولكنهم - ولعلها زيادة من مؤرخي السنة - قالوا بنبوة الأئمة ثم عبدوا جعفرأ . وأنهم نصبوا خيمة في

(١) التوبختي : فرق . . . ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) الأنصري : مقالات ج ١ ص ١٢ ، والشهرستاني : ج ١ ص ٣٠١ .

(٣) التوبختي : فرق . . . ص ٤٣ ، ٤٤ .

كناسة الكوفة يجتمعون فيها على عبادة جعفر ، وقد نعى خبرهم إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري ، فأخذوا عميراً ، فصلبه في كناسة الكوفة عام ١٢٨ هـ . وسجن بعض أصحابه وتسمى هذه الفرقة أيضاً بالمعجلة (١) .

وأما الفرقة الرابعة : فهي « فرقة السرى » ومن العجيب أن فهرس فرق الشيعة يدعوه بالسرى بن منصور ويجعل وفاته عام ٢٠٠ هـ في عهد المأمون وأنه قتل بيد الحسن بن سهل بينما يذكر أصحاب الطبقات كمنهج المقال ومنتهى المقال أن الإمام جعفرأ الصادق قد لعنه فيمن لعن من الغلاة وأن الصادق قال : إن بنانا والسرى وبزيغا لعنهم الله تراءى لهم الشيطان في أحسن ما يكون صورة آدمي من قرنه إلى سرته (٢) .

أما آراء هذه الفرقة فهي . . أن السرى رسول مثل أبي الخطاب ، أرسله جعفر وقال : إنه قوى أمين ، فهو موسى القوى الأمين ، إشارة إلى الآية القرآنية ، « إن خير من استأجرت القوى الأمين » ، « وهو فيه تلك الروح » . ثم إن جعفرأ هو الإسلام ، والإسلام هو السلام ، وهو الله ، ونحن بنو الإسلام ، أي بنو الله ، كما قالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه وكما قال رسول الله : سلمان ابن الإسلام وقد قام أتباع السرى بالصيام والصلاة والحج لجعفر ، وكانوا يلبنون له مرددين « ليك يا جعفر ليك » (٣) . وهذه التلبية والتهليل لدليل على أن غلو السرى لم يصل إلى حد نسبة الألوهية إلى جعفر ، بل إنه بدل فقط على أنهم آمنوا به كإمام غنوصي يتلقى من الله الأمر ، وهو هنا عودة الغلاة ، أو عودة المرجون ، هذه فكرة غنوصية لاشك تجعل منه آدم أو تجلي آدم الأول فيه .

أما الفرقة الخامسة : فهي المفضلية أتباع المفضل بن عمر الجعفي (المتوفى سنة ١٧٠ تقريباً) وكان صيرفياً في الكوفة . وقد آمن فيما يرى الأشعري - بألوهية جعفر الصادق (٤) . وقد تولى ابنه محمد بن المفضل الدعوة من بعده . وقد كان للثلاثين في تاريخ الغلاة مقام كبير ، بحيث اعتبروا فيما بعد « الباب » ويذكر الشاعر الغالي أبو الفخر الثمالي الديلمي (١٩٠ هـ) - رامزاً لها :

أنا أبصرت ديك العرش في صورة أنسى أنا أبصرت ربي قاعداً في حى جعفي  
وعند ماسينيون أن الباب - السين - ديك العرش أي المؤذن ، لأنه أول من سلم على الإمام بالتهليل « أنت أنت » (٥)

(١) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٢١ ، والشهرستاني ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) النوبختي : فرق الشيعة ص ٤٣ .

(٣) نفس المصدر ٤٣ ، ٤٤ .

(٤) الأشعري : مقالات ج ١ ص ١٣ .

(٥) الدكتور بدوي : شخصيات قلقة ص ٤١ .

كانت الخطابية إذن حركة ضخمة سياسية وعقائدية ، ويدولى أنها بدأت بعقيدة بسيطة غالية في حب الإمام ، وقد حدث هذا على يد أبي الخطاب ، ثم بدأ الغلو يفشو فيها ويفشو ، ويدخل الغنوص شيئاً فشيئاً ، حتى امتلكها امتلاكاً كاملاً ، ولم يجد الداعية أبو الخطاب وسيلة للسيطرة عليها فسار معها ، وكره منه جعفر هذا فترا منه ، كما تيراً هو من غلاة فرقته ، وحين قتل انضم بعض أتباعه لمعاصره الحسين بن أبي منصور ودخلوا في طائفة الخناقين ، وانضم الأتباع الآخرون للإسماعيلية ، بل هناك - كما رأينا - من يذهب إلى أن أبا الخطاب مؤسس الإسماعيلية الحقيقية وأنه دعى بأبي إسماعيل . وسنبحث هذا في الفصل الخاص بالإسماعيلية ، وقد بقى أبو الخطاب يشغل الأجيال من بعده ، وعاشت ذكراه لدى الغلاة حتى وقت متأخر .

لقد تفرق أتباعه فيما يقول ابن الأثير - وتعلموا الشعبة والبرنجيات والنجوم والكيمياء ، وأنهم يحتالون على كل قوم « بما يتفق عليهم » أى ينشرون دعوتهم ويدخلونها على الناس بما يتفق مع ميل كل واحد ممن يقابلونه - ثم أظهروا الزهد للعوام (١) . وكان ابن الأثير يريد أن يربط الغلو بالزهد ثم بالتصوف .

وأخيراً يلاحظ الدكتور الشيبى ببراعة أن « حركة أبي الخطاب لم تمت بهذه السهولة ، وإنما وجدنا محمد بن عبد الله بن مهران يكتب في القرن الثالث كتاب مناقب أبي الخطاب ووجدنا كتاباً في الرد على الخطابية بقلم رجل من أنصار الإمام الحسن العسكري المتوفى سنة ٢٦٠ هـ وهذا يدل على أن الحركة الخطابية بقى لها أنصارها حتى النصف الثاني من القرن الثالث .

(١) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٢١ .

## الفصل الثاني

### ظهور الفرق الميمية والعينية والسينية

بدأ الغلو كما رأينا بقداسة أسبغت على الإمام على بن أبي طالب . وحيكت الأسطورة حول هذا الغلو ، ونسبت إلى شخصية يهودية هي شخصية عبد الله بن سبأ ، وأصبح دعاء السبئية وتهليلهم « أنت أنت » . « أنت الخالق الباري » عنواناً على كل حركة غالية (١) . وسواء - كما قلت من قبل - صح وجود عبد الله بن سبأ أو لم يصح ، فقد وجد الغلو - قاسياً وعنيفاً - في قلب المذهب الشيعي ، وقدم لهذا المذهب أضراراً كبرى في أرجاء العالم الإسلامي . بل إن حركة المختار بن عبيد ، وهي حركة من أجل الحركات في تاريخ الإسلام ، قد شوهدت أشد التشويه حين نسب إليها الزبيرة والأموية الغلو ، واعتبروها حركة خارجة على الإسلام ، ومزج بينها وبين الكيسانية ، وقد حاول ماسينيون أن يعتبر الكيسانية أو المختارية فرقة عينية تقول بنوع من الألوهية لابن الحنفية ولوكيله المختار ثم للسادن : حوشب البرسمى (٢) .

وقد قدمنا للقارئ صوراً من هذا الغلو وأصحابه ، وسنقدم للقارئ في هذا الفصل صوراً أخرى غريبة ، كانت أصولها أيضاً في هذا الغلو الذي قدمنا صورته من قبل : بل زادت في الغلو . وبيدأ هذا الغلو بإسباغ الألوهية على النبي محمد ﷺ ؛ بمعنى أن روح القدس كانت في النبي ﷺ ، ثم في علي وأولاده حتى الإمام الثاني عشر . لعل هذه هي الفرقة الميمية الأولى ، وقد وجدت أصولها في السبئية القديمة . ويعلق الأشعري عليها بأنها ذهبت إلى ألوهية « كل واحد من هؤلاء » أي النبي ﷺ والأئمة الاثني عشر « كل واحد منهم إله عن التناسخ ، والإله عندهم يدخل في الهياكل (٣) . ويقصد بهذا أن روح القدس تحمل وتناسخ في الأجسام . ولم يتنبه ماسينيون إلى هذه الفرقة العينية الاثني عشرية الغالية في عرض الفرق الميمية . ومن المؤكد أن المقصود بالألوهية هنا حلول الكلمة في النبي محمد ، ثم انتقالها في الأئمة . فالغنوص المسيحي واضح هنا تمام الوضوح . مع نزعة صابئية حرنانية تتضح في قول هذه الفرقة بأن الإله يدخل في الهياكل .

(١) الملطي : التنبيه ص ٢٥ .

(٢) ماسينيون : شخصيات قلقة ص ٤٠ - ٤٢ ، والطبري : تاريخ ج ٢ ص ٧٠٦ .

(٣) الأشعري : مقالات : ج ص ١٤ .

ويمكن أن يدرج في اتجاه هذه الفرقة الكاميلية أو الكيلية . وقد نسبت هذه الفرقة إلى كميل بن زياد صاحب الإمام على ، ونسب إليه أنه يقول «بأن الإمامة نور يتناسخ من شخص إلى شخص ، وذلك النور في شخص يكون نبوة ، وفي شخص يكون إمامة وربما تناسخ الإمامة فتكون نبوة» . وقال بتناسخ الأرواح وقت الموت (١) . وقد كان بشار بن برد الشاعر من أتباع هذه الفرقة الأخيرة ، وهذه الفرقة وإن كانت لا تقول بالوهمية اثني عشر إلا أنها تقول بحلول نور في النبي ، ومنه إلى الأئمة . وقد تساءل هل كان كميل بن زياد (المقتول عام ٨٣) بيد الحجاج والذي وثقه ابن سعد وابن معين (٢) ، ممن ذهبوا إلى القول بالتناسخ في هذا الوقت المبكر . أم أنه كان هناك كميل بن زياد آخر ومتأخر .

وأضح أيضاً تحت هذه الفرقة (المفوضة) وهي تقول إن الله خلق محمداً ﷺ ، ووكل الأمور وفوضها إليه فخلق الدنيا دون الله تعالى ، ثم فوض محمد ﷺ تدبير العالم إلى علي بن أبي طالب - فهو المدير الثاني بعد محمد ولا ينسبون الحسن والحسين إلى علي ، لأن الإله لا يكون له ولد ولا والد . وكانوا يسمون محمداً وموسى الخائنين لأنهم يدعون أن هارون أرسل موسى وعلياً أرسل محمداً ، فخاناها . ويزعمون أن علياً أمهل محمداً عدة سنين ، مدة أصحاب الكهف . فإذا انقضت هذه المدة ، وهي ثلاثمائة وخمسون سنة انتقلت الشريعة .

ويقولون إن الملائكة ، كل من ملك نفسه ، وعرف الحق ، وأن الجنة معرفة الإمام واتصال مذهبه ، والتار الجهل به والعدول عن مذهبه .

أما فخر الدين الرازي فيقول في كتابه اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص ٥٩) : أن المفوضة هم الذين يقولون إن الله خلق روح علي وأرواح أولاده ، وفوض العالم إليهم ، فخلقوا هم الأرضين والسموات ، وقالوا من هنا قلنا في الركوع سبحان ربى العظيم وفي السجود سبحان ربى الأعلى . فالإله الأعلى هو علي وأولاده ، والإله الأعظم هو الذي فوض إليهم العالم .

ويقابل هذه الفرقة الميمية الغالية الاثني عشرية فرقة عينية وتنسب إلى العلياء بن ذراع الدومى أو الأسدى ، وهذه الفرقة تؤمن بأن «روح الإله» قد حلت في علي وأنه بعث محمداً رسولاً ، فدعا إلى نفسه ، وتسمى هذه الفرقة أيضاً بالذمية لأنها تدم الرسول محمداً ﷺ . وأضح تحت هذه الفرقة أيضاً الغرابية أتباع ابن جمهور الغرابي الذي ادعى أن جبريل أخطأ وأزاع الرسالة من علي إلى محمد

(١) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) الذم : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ١٤٥ .

عليه السلام (١) . ويرى الشهرستاني أن من يقدمون علياً في أحكام الإلهية يسمون العينية ، ومن يقدمون محمداً ﷺ يسمون الميمية .

غير أن هناك تفسيراً آخر لهذه الفرقة العليائية أو العليوية أورده ماسينيون عن الكشي وغيره عن مقالة بشار (أى بشار الشعيري المتوفى حوالى سنة ١٨٠ هـ) هي مقالة العليوية . يقولون إن علياً عليه السلام رب وظهر بالعلوية الهاشمية ، وأظهر به عبده ورسوله بالمحمدية . ووافق أصحاب أئى الخطاب فى أربعة أشخاص : على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، وأن معنى الأشخاص الثلاثة : فاطمة والحسن والحسين تلييس ، وفى الحقيقة شخص على ، لأنه أول هذه الأشخاص فى الإمامة والكثرة ، وأنكروا شخص محمد عليه السلام ، وزعموا أن محمداً عبد وعلياً رب . وأقاموا محمداً مقام سلمان عند الخمسة . وجعلوه - أى سلمان - رسولاً لمحمد صلوات الله عليه . فوافقهم أى بشار فى الإباحات والتعطيل والتناسخ . والعلياوية سمىها الخمسة عليائية وزعموا أن بشاراً الشعيري لما أنكر ريبوية محمد وجعلها فى على وجعل محمداً عبد على وأنكر (٢) رسالة سلمان - مسخ فى صورة طير يقال له عليا ، يكون فى البحر فلذلك سموهم العليائية .

ويتصل بهاتين الفرقتين «السينية» وهم القائلون بإلهية سلمان الفارسى (٣) . ويرى أبوخلف القمى أنهم غلاة أظهروا التشيع واستبطنوا المجومية ، وأنهم زعموا أن سلمان هو الرب ، وأن محمداً داع إليه ، وأن سلمان لم يزل يظهر نفسه لأهل كل دين (٤) . ويقول أبو حاتم الرازى : إن السلمانية ، وهم الذين قالوا بنبوة سلمان الفارسى وتعالى قوم منهم فأعلنوا ألوهيته . أما الذين يؤسسون بنبوته فيؤولون قول الله عز وجل « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا » قالوا : إنما هو سلمان «أرسلنا قبلك من رسلنا» وإنما كانت الكتابة فى المصحف . الميم ملصقة بالنون بلا ألف وهو سلمان كما كتبوا لقمن وعنمن بلا ألف . وغلا فيه قوم حتى فضلوه على أمير المؤمنين - على - « صلوات الله عليه (٥) » . سلمان هنا أحد الأنبياء القرآنيين ، وسيأتى الإسماعيلية ويقولون : إنه حامل القرآن . وسرى ما يشبهه عند محمد بن على السلمغانى الكاتب المعروف بابن أبى الفزاقر وصاحب فرقة الغزاقرية . (قتل حرقاً عام ٣٢٢ هـ) وهو شخصية هامة لم تدرس بعد ، وله كتب متعددة منها كتاب فى المباهلة وكتاب فى الحسن السادس

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٩٣ ؛ والبغدادى : الفرق ص ١٥٢ ؛ والمطى : التنيه ص ٢٩ ؛ والرازى : اعتقادات ص

٥٩ ، ٦٠ .

(٢) ماسينيون : شخصيات ص ٤١ .

(٣) الأشعري : مقالات ج ٢ ص ٣١ .

(٤) أبوخلف القمى : المقالات ص ٦١ / ٦٢ .

(٥) نقل الأستاذ ماسينيون النص عن أبى حاتم الرازى - فى شخصيات قلقة ص ٤٥ .

ويذكر ابن الأثير أنه أحدث مذهباً غالباً في التشيع والتناسخ وحلول الإلهية فيه . ويبدو أنه ادعى لنفسه مقام سلمان وهو يساوي عنده ميكائيل وقد تسمى بالباب ، أى ادعى أنه الباب إلى الإمام المنتظر وقد ذكر أنه أعلن أنه إله الآلهة بحق الحق ، وأنه الأول القديم الظاهر الباطن الرازق التام الموماً إليه بكل شيء .

ويبدو أنه ادعى فقط حلول الإلهية فيه وأن الله يحل في كل شيء على قدر ما يحتمل . وأنه خلق الضد ليدل على المضدود . فمن ذلك أنه حل في آدم لما خلقه ، وفي إبليس أيضاً . وكلاهما ضد لصاحبه لمضادته إياه في معناه . ويرى السلمغاني أن الدليل على الحق أفضل من الحق وأن الضد أقرب إلى الشيء من شبيهه . وأن الله إذا حل في جسد ناموق ظهر من القيدة والمعجزة ما يدل على أنه هو - أى الله ، وأنه لما غاب آدم ظهرت اللاهوتية في خمسة ناسوتية كلما غاب منهم واحد ظهر مكانه آخر . وفي خمسة أبالسة أضداد لتلك الخمسة ثم اجتمعت اللاهوتية في إدريس وإبليس وتفرقت بعدهما كما تفرقت بعد آدم . . . إلى أن انتهت إلى علي بن أبي طالب فاجتمعت فيه اللاهوتية وفي إبليس . ثم إن الله يظهر في كل شيء . وكل معنى وأنه في كل أحد بالخاطر الذي يخطر في قلبه فيتصور له ما يغيب عنه حتى كأنه يشاهده وأن الله اسم لمعنى . وأن من احتاج الناس إليه فهو إليه . ولهذا المعنى يستوجب على كل أحد أن يسمى إلهاً . وأن كل أحد من أشياعه يقول : إنه رب لمن هو دونه في درجته . وكان الرجل منهم يقول : أنا رب لفلان ولفلان ، وفلان رب ربي حتى ينتهي إلى السلمغاني فيقول : إنه رب الأرباب ، لا رب غيره ولا ربوبية بعده (١) .

ويذكر المسعودي أنه قتل معه رجل من أتباعه يقال له ابن أبي عون ويعرف بابن المنجم الكاتب (٢) .

ونحن قد رأينا من قبل أن هناك من أنكر على سلمان - أى جبرئيل - أمانته وأنه خان ، وأزاع الرسالة من علي إلى محمد ﷺ ولكن ما لبثت أن ظهرت فرقة من أكثر الفرق غلوًا ، وهي فرقة الخمسة . وهذه الفرقة تستند على حديث الكساء المشهور في قصة المباهلة بين محمد رسول الله ﷺ ووفد نصارى نجران . فقد أتى وفد من نصارى نجران يسألون الرسول عن اعتقاد الإسلام في المسيح . وكان الوحى قد نزل يقول «إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل» ووصل الوفد النجراني إلى المدينة . وأكرم الرسول وفادته ، وناقش الوفد الرسول ، وأصر كل على رأيه في المسيح . وهنا نزلت الآية «فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم . فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبهل . فنجعل لعنة الله على الكاذبين» وقبل الوفد النجراني

(٢) المسعودي : التبيين والإبصار ص ٣٤٣ .

(١) البغدادي : الفرق ص ١٥٩ - ١٦٠ .

المباهلة وأتى محمد ﷺ برهائن المباهلة وهم فاطمة والحسن والحسين وعلى ثم الرسول نفسه وعلى «الكثيب الأحمر» بجوار المدينة ، في الموعد الذي اتفق فيه الفريقان على المباهلة ألقى رسول الله ﷺ بكساء أسود على شجرتين صغيرتين وتحت الكساء وفي ظلاله جلس وبجانبه على وأمامه الحسن والحسين وخلفه فاطمة . . . هؤلاء أصحاب الكساء يتظنون مقدم الوفد النصراني للمباهلة . وأقبل أسقف نجران والوفد متقدمين نحو أصحاب الكساء . وآههم محمد ﷺ ، وبدأ يرفع يديه ممدودتين فوق رأسه وظهرت الأضواء الصاعقة ، وتلألأت المياه ، وانغمت الأشجار وبدأ الكون ، وكان صاعقة من المياه تكاد أن تنفض على الأرض . وولى الأسقف ووفد نجران هارين . . . وأعلنوا تحليهم عن المباهلة .

أما أهل السنة والجماعة ، فقد رأوا في حادثة الكساء ، معجزة لمحمد ﷺ ، قام بها تنفيذاً للأمر القرآني الوارد من السماء . ولكن ما لبث الشيعة المعتدلة أن رأوا فيها ركيزة من ركائز عقيدتهم في الحق الإلهي لعل وأولاده من بعده في إمامة المسلمين . واقتن الشيعة في وصف الكثيب الأحمر ، وعليه أصحاب الكساء ، وهالات الجلال الإلهي تحيط بهم .

وكان لا بد أن يتناول الغلاة من الشيعة هذه الحادثة بكل أنواع التفسير ، وبميكون حولها الأساطير . ومن هنا تكونت «المخمسة» من غلاة الشيعة .

ويبدو أن الفرقة الخمسة ظهرت في أصحاب أبي الخطاب . والفرق الخمسة تنقسم إلى ثلاث : ميمية ، وعينية ، وسينية .

وبالرغم من أن ماسينيون يزعم تحت تأثير عقيدته الكاثوليكية - أن أبا الخطاب والخطابية كانوا سينية يؤمنون بالسين - سلمان - المسيحي في نظره ، فإن أقدم مؤرخ شيعي وهو أبوخلف القمي - يذكر لنا الخمسة أصحاب أبي الخطاب ميمية آمنوا أولاً - وبالذات - بمحمد ، وأن الله جل وعز هو محمد . وأن محمداً ظهر في خمسة أشباح وخمس صور مختلفة . ظهر في صورة محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين . وأن الأربعة الآخرين من هذه الخمسة تليس لا حقيقة لها . «والمعنى شخص محمد» لأنه أول شخص ظهر وأول ناطق نطق . لم يزل بين خلقه موجوداً بذاته يتكون في أي صورة شاء . يظهر نفسه لخلق في شتى الصور . يظهر في الشيوخ وفي النساء وفي الأطفال . يكون مرة والداً ومرة مولوداً وما هو بوالد ولا مولود وهو يظهر في الزوج والزوجة . أما العلة في أنه أظهر نفسه بالإنسانية والبشرانية ، فذلك لكي يأنس به الخلق ولا يستوحشوا ربه .

وكان محمد - في نظر هؤلاء الخمسة - آدم ونوحاً وإبراهيم وعيسى . ينتقل في الصور لدى العرب والعجم ، ظهر لدى العرب في صورته وفي صورة هؤلاء الأربعة ، كما ظهر لدى العجم في صورة

الأكاسرة والملوك ، الذين ملكوا الدنيا . أن معناهم محمد لا غيره . أو بمعنى أدق هنا نظرية « المعنى والاسم » المشهورة في تاريخ الباطنية عامة . المعنى واحد ويتعدد الأسماء .

كان محمد يظهر نفسه لخلقهم في كل الأدوار والدهور . إنه تراءى لهم بالنورانية فدعاهم إلى الإقرار بوحدانيته ، فأنكروه . فقرأى لهم من باب النبوة والرسالة ، فأنكروه أيضاً . فقرأى لهم من باب الإمامة ، فقبلوه . فظاهر الله الإمامة وباطنه ، الذي معناه محمد ، يدركه من كان من صفوته بالنورانية . أما من لم يكن من صفوته فيدركه بالبشرانية اللحمانية الدموية ، وهو الإمام . أما محمد نفسه فلا جسم له ، هو معنى ولكنه يتغير ، فالأنبياء تجليات له من لدن آدم إلى ظهور محمد الأخير ، مقامهم مقام محمد القديم المعنى ، ثم انتقل المعنى إلى فاطمة ، فهي محمد ، وهي الرب ، جعلت سورة التوحيد لها « قل هو الله أحد » إنها واحدة مهدية وفسروا « لم يلد » بالحسن ، ولم يولد « بالحسين » ولم يكن له كفواً أحد » هو محمد . ثم نزل في أزواجه ، إنه كان يظهر في صورة الزوج والزوجة كما يظهر في صورة الوالد والولد .

ثم ظهر في الأئمة ، وإنما هو محمد بغير جسم ويتبدل اسم « ثم ظهر في الأبواب » وهم أبو الخطاب وبيان بن سميان وصائد النهدي ، والمغيرة بن سعيد وحمزة بن عمار ويزيد والسري ومحمد بن بشير هم أنبياء أبواب لسلطان « بتغيير الجسم وتبديل الاسم » والمعنى واحد هو سلمان وهو الباب الرسول لمحمد « يظهر معه في كل حال ، في العرب والعجم . ففى ما ظهر محمد ، ظهر معه الباب سلمان ، في أى صورة ظهر ، هو رسول محمد الرب ، متصل به . ومع الباب ، الأيتام والتجباء والتقباء والمصطفون والمختصون ، والمتحنون والمؤمنون واليتيم الأول ، هو المقداد بن عمرو الصحابي المشهور ، وسمى يتيماً ، لقربه من الباب وتفرد بالانصال به . وهناك يتيان ، يتيم كبير ويتيم صغير - الأول هو المقداد - كما ذكرنا - والصغير هو أبو ذر .

وأخيراً - إن من عرف هؤلاء بهذه المعاني فهو مؤمن ممتحن ، وضعت عنه جميع الشرائع ، وهي استبعاد لغير المؤمنين الممتحنين ، فإذا ارتفعت الشرائع أبيع للمؤمن الممتحن جميع ما حرم الله في كتابه وعلى لسان نبيه . إن هذه الحرمات رجال ونساء ، ممن جحدوا وأنكروا الإمام ، وأن جميع ما أمر الله به من تكاليف - الصلاة والزكاة والحج والصوم والعبادات جميعاً هي الآصار والأغلال ، هي على أهل الجحود فقط ؛ عقوبة لهم . وأن المحرمات - من الزنا والخمر والسرقة واللواط وكل الكبائر ، وكذلك الوضوء وغسل الجنابة والتيمم ، فكلها اجتناب رجال ونساء واجتناب توليتهم ، فإذا حرمت على نفسك توليتهم ، فقد اجتنبت محارم الله .

ويذكر أبو خلف القمي أن هذه الفرقة الخمسة عاشت عيشة شيوعية جنسية وأنهم أبطلوا الزواج

والطلاق . وتأولوا معانيها فالزواج باطنه مواصلة أخيك المؤمن ، والصداق هو أن تطلع على ما عندك من العلم ، والطلاق هو أن تعتزل أصدقاءك المقصرة ، ولا تطلعهم على أمرك . والمرأة سواء أكانت في حوزتك أم في حوزة أخيك المؤمن هي « بمنزلة الريحانة تفلحها إذا اشتيت ، فإذا شممتها حيت بها أخاك المؤمن » .

ثم آمنت الخمسة بالتناسخ - على خلاف غيرهم من الغلاة - فيما يقول القمى . فأرواح الجاحدين تنقلب في جميع الصور إنسانية وغير إنسانية . يتقلبون في كل شيء ، حتى لا يبقى في السموات والأرضين دواب ولا ساكن ولا متحرك إلا جرت فيه الأرواح ، حتى النجوم والكواكب ، فإذا تم ذلك كله ، صاروا جهاداً أو حجارة أو حديداً . وتأولوا في ذلك قول الله : « قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم » ، فيقولون من يعيدنا : قل الله الذى خلقكم . فذلك جهنم عند الخمسة ، يعذب المقصر الجاحد بها أبد الآبدين .

أما المؤمن العارف منهم ، فلا تنتقل روحه في شيء من الأشياء ، وإنما يلبس سبعة أبدان ، هي بمنزلة سبعة أقصص ، إذا تعدى من فيص ، بقمص آخر وذلك أن الإيمان سبع درجات ، أوسع أدوار - والدور عشرة آلاف سنة ، والكور سبعة أدوار . والكور سبعون ألف سنة . بقمص في كل دور قيصاً أو قالباً ، غير القالب الأول . وفي الدرجة السابعة يكون الارتقاء إلى معرفة الغاية ، فيكشف له في نهاية الكور الغطاء ، فيصير عارفاً ، ويرفع عنه التلبس ، فيدرك الله محمداً بذاته ، بالنورانية لا بالبشرية اللحمانية (١) .

هؤلاء هم أقدم « مخمسة » من أتباع أبى الخطاب ، وهم فرقة ميمية كما رأينا تمثل الآراء الباطنية في أول ظهورها الحقيقي . استخدمت فكرة النور المحمدى التى عرفت في محيط الإمام جعفر الصادق في صورة معتدلة ، فوضعتها في صورة مغالية ، ثم خلطتها بعناصر مسيحية مانداية ومانوية ومزدكية . ثم أخذت بفكرة رفع التكاليف - وهى متأثرة بالمزدكية والحزمية وربطها بالتناسخ الأفلاطونى . واستخدمت مصطلحات أفلاطونية مثل « القالب والقميص » ولعلها أن تكون قد أخذت التناسخ عن الحرنانية الأفلاطونية . إن هذه الفرقة الخمسة الميمية كانت ذات أثر كبير في فرقة الباطنية التى تكونت فيما بعد ، وهى التى تكون الجناح الأيسر المتطرف للإمامية العلوية ، وتظهر كثيراً باسمها ثم زرعت الشر الخطير فيمن أتى بعدها من فرق كالنصيرية والدروز والعلائية وما زالت هذه الأفكار تعيش في صورة أو في أخرى لدى النصيرية والدروز والإمامية العلوية المعاصرة . كما أنها كانت أيضاً ذات أثر خطير في زنادقة الصوفية ، ثم في التصوف الفلسفى عامة .

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات .

ولكن سرعان ما نجد فرقة من فرق الغلاة الخمسة تجمع بين العين والميم بل تنادى بإلهية خمسة أشخاص - أصحاب الكساء - وهم محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين . واعتبرت خمستهم شيئاً واحداً ، والروح حالة فيهم بالسوية ، لا فضل لواحد على الآخر . ويقول شاعرهم :

توليت بعد الله في الدين خمسة نبياً وسبطيه وشيخاً وفاطماً<sup>(١)</sup>

وهنا فقط إعلان للتولى ولكن ما يلبث هذا التولى أن يأخذ صورته الغالية على يد شرع أو الشريعي فهو - يؤمن بألوهية الخمسة ، وهذه الخمسة خمسة إبليسية مضادة هي أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية وعمر بن العاص . ثم ينتهي الشريعي كمادة الغلاة إلى أن يقر أن روح الإله حل فيه <sup>(٢)</sup> .

وكان أهم تلامذة الشريعي رجلان من أشد غلاة الشيعة هما محمد بن نصير النخيري - وقد كون فرقته النصيرية وإسحق بن زيد بن الحرث صاحب فرقة الإسحاقية . وقد كان هذا الأخير من أصحاب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وصاحب فرقة الجناحية الإباجية . وأما فكرتهما فهي « ظهور الروحاني بالجسماني » وقد ظهر جبريل ببعض الأشخاص ، وتمثل بصور البشر ، وكذلك الشيطان . لذلك ظهر الله بصورة الأشخاص - وهم الخمسة المشهورون ، محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين « هم خير البرية ظهر الحق بصورتهم ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم » هذا هو معنى التآليه عند الخمسة هو نوع من التأييد الرباني ، لا اعتبارهم آلهة خالقين وقادرين . وأما السبب في اختصاص على بإطلاق اسم الإلهية عليه ، لأنه كان مخصوصاً بتأييد من الله مما يتعلق بباطن الأسرار ، وسينشأ عن هذا فكرة « المخصص » عند الإسماعيلية والدروز ، أي أنه المعلن - أي صاحب العلل . فمحمد صلى الله عليه وسلم صاحب الظواهر - وعلى صاحب السرائر « أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » . وقاتل المشركين كان إلى النبي ، وقاتل المنافقين إلى علي . واستندوا في صفة على الباطنية إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا في عيسى بن مريم ، وإلا لقلت فيك مقالاً » وأخيراً - إن محمداً صاحب التنزيل ، وعلى صاحب التأويل ، واستندوا في هذا إلى الحديث « فيكم من يقاتل على تأويله ، كما قاتلت على تنزيله ، ألا وهو خاصف النعل » فكل هذه العلوم ، علم التأويل وغيرها من علوم ، وقاتل المنافقين ، والخوارق من مكالمة الجن وقلع باب خبير ، وعلمه بما سيكون ، كل هذا لا « بقوة جسدية » دليل على أن فيه جزءاً إلهياً وقوة ربانية ، أو يكون هو الذي ظهر الإله بصورته وخلق بيده وأمره بلسانه .

وكان على عند النصيرية والإسحاقية موجوداً قبل خلق السموات والأرض واستندوا في هذا على أثر

(١) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٢) الأشعري : مقالات ج ١ ص ١٤ ، ١٥ .

له « كنا أظلة - على عيين العرش ، فسيحنا - فسيحت الملائكة بتسيحنا » فتلك الظلال وتلك الصور العرية عن الإظلال هي حقيقة وهي مشرقة بنور الله إشراقاً لا يتفصل عنها سواء كانت في هذا العالم أوفى ذلك . وأطلقوا على لسان علي « أنا من أحمد كالضوء من الضوء ، ولا فرق بين النورين إلا أن أحدهما أسبق ، والثاني لاحق به تال له وهذا يدل على نوع شركة » .

ويرى الشهرستاني أن الخلاف بين النصيرية والإسحاقية ، هو في أن الأولى ترى أن محمداً وعلياً يتشاركان في الإلهية ، ففي كل منهما جزء إلهي ، والثانية ترى أنهما يتشاركان في النبوة فكل منهما نبي (١) . وقد ذكر الملطي هذه الفرقة فقال « والفرقة الثامنة من الحلولية زعموا أن علياً ومحمداً عليهما السلام شريكان في النبوة وأن الرسالة إليهما ، وأن طاعتها ومعصيتها واحد لا فرق بينهما ، وأن علياً نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، واحتجوا بقول النبي عليه السلام « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » (٢) ولعل هذه الفرقة هي الإسحاقية ، وقد ذهب فخر الدين الرازي إلى أن الإسحاقية - وهي تنفق مع النصيرية في القول بأن الله تعالى كان يحمل في علي في بعض الأوقات ، كانت باقية حتى عصره في حلب وبعض نواحي الشام (٣) .

أما النصيرية - فما زالت تعيش حتى الآن في سوريا وبعض أجزاء من شمال فلسطين وبالرغم من أنها تحفظ باسم النصيرية ، غير أن كثيراً من العقائد الأخرى قد دخلت في المذهب بحيث يختلف المذهب الآن عن المذهب الأول الذي ينسب إلى معلمها الأول محمد بن نصير النيمري أو الخنصبي النصيري (المتوفى عام ٣٤٦) . وقد كتب ماسينيون في دائرة المعارف الإسلامية مقالاً طويلاً عن النصيرية وتطورها .

ثم يذكر لنا فخر الدين الرازي فرقة عينية أسماها الأزلية (٤) وكان من الأولى أن تربطها بالعلياية ، « إنها تدعى أن علياً قديم أزلي ، وكذلك عمر بن الخطاب إلا أن علياً كان خيراً محضاً وعمر كان شراً محضاً » . ويرى الرازي أنهم اقتبسوا هذه المقالة من المجوس . وهذه فرقة بلا شك عينية ، ولكن نظام التقابل فيها أي مقابلة الخير للشر - تذكرنا بالخمسة الخيرة عند الشريعة ومقابلتهم بالخمسة الشريرة . وبعد : فإننا نساءل ما هو مصدر الخمسة أو القول بالخمسة الخيرة أو بالخمسة الشريرة ، هل هي الجواهر الخمسة المنسوبة خطأ إلى أنبادوقليس ، أو إلى الحرثانية . إنني أرى - كما قلت من قبل - أنها نزعاً فيثاغورية محدثة مختلطة بمختلف أنواع الغنوص .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣١٦ - ٣١٨ . (٣) الرازي : اعتقادات ص ٦١ .

(٢) الملطي : التنبيه ص ٩ . (٤) الرازي : نفس المصدر - والصحيفة .

## الفصل الثالث

### الغلو العباسي

لم يكن العباس بن عبد المطلب من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وإن كان المؤرخون في العهد العباسي قد حاولوا - ما وسعهم الأمر - أن يصفوا عليه الكثير من القدمية ، وأن يعتبروه ممن كتم إيمانه ليكون عيناً للرسول على كفار قريش وأنه قد فعل هذا بانفاق مع رسول الله ﷺ . غير أن من الثابت تاريخياً أنه حضر موقعة بدر مع المشركين . وأنه أسر ومن عليه الرسول بالفداء . وإننا لرى بعد كيف صاح عبد الله بن الحسن في المنصور العباسي - وعبد الله تحت العذاب - « ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر » . وكان العباس بن عبد المطلب نديماً لأبي سفيان ، وقد أُرِدْفه على بغلته ، لكي يقابل الرسول قبل فتح مكة لينقذه من القتل .

ولا شك أن العباس أخلص للرسول سواء في جاهليته - عصبية لبني هاشم - أو في إسلامه . وثبت مع الرسول يوم حنين حين تخلى عنه الناس وكان يجوار على بن أبي طالب يوم بيعة السقيفة . وكان يرى أن علياً أحق الناس بالخلافة . ولكنه ظل مخلصاً للنظام الإسلامي في ظل أبي بكر وعمر وتورد لنا الروايات أن عمراً استنق به الماء ، فنزل المطر وسقى الناس . وهكذا عاش العباس - عم الرسول ﷺ - بعده .

وكان عبد الله ابنه - فيما تجمع المصادر السنية حبر الأمة وعالمها ، وكان أول مفسر للقرآن مصداقاً لدعوة الرسول « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » أما الشيعة فيعتبرونه من أصحاب علي ، وأنه أخذ التفسير عنه ، ونحن نعلم أنه اختلف مع علي بعض الاختلاف حين تصرف ابن عباس بأموال المسلمين ، وأنه عاد إلى الحجاز غاضباً ، وكان من أسباب خذلان علي في يوم التحكيم أنه لم يرسل عبد الله بن عباس لمفاوضة عمرو بن العاص يوم الحكيم بل بعث تحت إلحاح القراء من جيشه أبا موسى الأشعري . ويبدو أن الشيعة نفسها بعد زمن طويل من التحكيم كانت تتدارس الأمر وترى كيف أخطأت حين نزلت على رأى طائفة من القراء انقلبوا بعد إلى الخوارج . وبعثوا أبا موسى . ويتضح هذا من سؤالهم لعبد الله بن عباس : ما منع علياً أن يبعثك مكان أبي موسى في يوم الحكيم ؟ فقال ابن عباس : منعه من ذلك حائل القدر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء . أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت مدارج نفسه ، ناقضاً لما أبرم ومبرماً لما نقض أسف إذا طار ، وأطير إذا أسف ، ولكن مضى قدر ،

وبقى أسف ، ومع اليوم غداً ، وللآخرة خير للمتقين (١) .

وعاش عبد الله بن عباس بعد مقتل علي في حزن دائم مقيم ، يعني فقط بالعلم الإسلامي من تفسير وفقه وحديث ، ووفد على معاوية - فيمن وفد من بني هاشم ، ولكن لم تكن صلته بالبيت الأموي صلوات محبة ، بل صلة كاره مبغض مرغم ، ثم كره أشد الكره ببيعة يزيد وإن كان قد بايع . ولكنه نصح الحسين بن علي ألا يخرج إلى الكوفة ، وطلب منه أن يشخص إلى اليمن « فإنها في عزلة ، ولك فيها أنصار وإخوان ؛ فأقم بها ، وبث دعواتك ، واكتب إلى أهل الكوفة وأنصارك بالعراق » (٢) فالرجل كان داهية ، وذا عقلية سياسية مستنيرة ، وزراه يستخدم مصطلح الدعاة ، ولم يستمع إليه الحسين ، وقتل الحسين . ثم قامت فتنة الزبير - وقد ذكرنا من قبل كيف اختلف ابن الزبير مع محمد ابن الحنفية وعبد الله بن عباس ، وكيف حبسها في حجرة زمزم ، وكاد أن يحرقها ، حتى أنقذها أبو عبد الله الجدلي من قبل المختار بن أبي عبيد (٣) ، ومات عبد الله بن عباس سنة ٦٨ هـ وصلاته على خير ما يكون بالبيت العلوي . بل تميز أيضاً عبد الله بن عباس بصلوات قوية بمحمد بن الحنفية وأولاده .

وكان علي بن عبد الله أصغر أولاده ، ولكنه كان أعظم قدراً ، وكان علي ، هذا - من دون أولاد عبد الله بن عباس - الجد الأكبر لخلق بني العباس من بعد ، ولم يرد عن علي بن عبد الله علم أو مشاركة في السيادة اللهم إلا ما يذكر من أن أخواله من بني كندة قد منعه بعد الحرة من مسلم بن عقبة (٤) . فهل شارك علي بن عبد الله في حرب جيش يزيد ؟ ليس هناك إشارة إلى مشاركته فيها . ولكن يبدو أنه انتقل بعد استتباب الأمر للأمويين إلى الحميمة - وهي قرية بالشراة - صقع من أصقاع الشام في طريق المدينة إلى دمشق .

وقد ذهب بعض المؤرخين الكامل في المبرد أنه كان يدعى « بالسجاد » وكان يدعى بندي الثقات . لا شك أن هذه دعاية من العباسيين لكي يضعوه مقابلاً للإمام العلوي زيد بن علي المشهور بالسجاد وبندي الثقات . كما أعلن العباسيون أيضاً أن علياً بن أبي طالب هو الذي سماه علياً وكناه أبا الحسن ودعاه بأبي الأملاك ، بينما يذهب الواقدي إلى أنه ولد في الليلة التي قتل فيها علي بن أبي طالب . وقد مات محمد بن عبد الله بن العباس سنة ثمانى عشرة ومائة وقيل أربع عشرة ومائة أو ثمانى

(١) المسعودى : مروج ج ٣ ص ٤٥ .

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٤ .

(٣) المسعودى : مروج ج ٣ ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) المسعودى : مروج ج ٣ ص ١٨ .

عشرة أو تسع عشرة (١) .

ويبدو أن الحركة العباسية لم تبدأ في عهد علي بن عبد الله . أو على الأقل لم يكن هو معنياً بها . ولكن قام ابنه محمد بن علي بأمر الدعوة ، وبدأ بتنظيمها . وقد ذهب بعض المؤرخين كما قلنا من قبل إلى أن « الوصية » و « الإمامة » انتقلت إلى محمد بن علي عن طريق غنوصي . فيذكرون أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية - سم وهو في طريقه إلى فلسطين - يبايعاز من سليمان بن عبد الملك . وكان أبو هاشم أخطر رجال البيت الهاشمي ، ويبدو أنه كان يعد العدة لانقلاب كبير فلما علم سليمان - أرسل بعض رجاله - كما قلت من قبل - وانتظروه في الطريق ودعوه إلى أحييتهم وسقوه لبناً مسموماً ، فلما أحس أبو هاشم بالموت ، قال لمراقبيه : « ميلوا بي إلى ابن عمي محمد بن علي بالحميعة من أرض الشراة » فلما قدم عليه قال له : يا ابن عم . أنا ميت وقد صرت إليك وهذه وصية أبي وفيها « أن الأمر صائر إليك وإلى ولدك والوقت الذي يكون ذلك والعلامة . وما ينبغي لكم العمل به على ما سمع وروى عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام . فاقبضها إليك . وهؤلاء الشيعة استوص بهم خيراً . وهؤلاء دعائك وأنصارك ، فاستبطنهم ، فإنني قد بلوتهم بمحبة ومودة لأهل بيتك . ثم هذا الرجل ميسرة فاجعله صاحبك بالعراق ، فأما الشام فليست لكم ببلاد ، وهؤلاء رسله إلى خراسان وإليك ، ولتكن دعوتكم بخراسان ... فإنني أرجو أن تتم دعوتكم ، ويظهر الله أموركم . واعلم أن صاحب هذا الأمر من ولدك عبد الله بن الحارثية ثم عبد الله أخوه الذي أكبر منه . فإذا مضت سنة الحمار ، فوجه رسلك بكتبك ، ووطد الأمر قبل ذلك بلا رسول ولا حجة ... ثم اختر دعائك ، فليكونوا اثني عشر نقيباً . فإن الله عز وجل لم يصلح أمر بني إسرائيل إلا بهم وسبعين نفساً بعدهم يتلونهم ، فإن النبي ﷺ إنما اتخذ اثني عشر نقيباً من الأنصار اتباعاً لذلك . ولما سأله محمد بن علي : يا أبا هاشم . . وما سنة الحمار؟ قال : لم يمض مائة من نبوة قط إلا انقضت أمورها لقول الله تعالى « أوكالذي مر على قرية ... الآية ، فإذا دخلت مائة سنة ، فابعث رسلك ودعائك ، فإن الله متمم أمرك » (٢) .

تلك هي الوصية التي يذكر اليعقوبي أن أبا هاشم قد دفعها ، كما دفع وثائق الدعوة ، إلى محمد بن علي قبل وفاة أبي هاشم عام ٩٧ هـ . ومن المحتمل أن أبا هاشم - وقد أحس بالموت يقرب منه بعد أن قدم له السم - أمر أتباعه بحمله إلى أقرب الناس إليه في الشام وهو محمد بن علي ، وأنه أفضى إليه قبل موته بأسرار الدعوة التي كان يقوم بها وتنظيماتها السرية ، ولكنني أشك في صيغة الوصية وأسلوبها . فلم

(١) ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ١ ص ٥٧٩-٥٨٣ .

وانظر اليعقوبي : تاريخ ج ٣ ص ٦٢ .

(٢) اليعقوبي : تاريخ ج ٤٠-٤١ .

يكن أبو هاشم غنوصياً ، بل هو أقرب إلى المعتزلة ، ولم يكن أبو هاشم من السذاجة بأن يتقل الحق الشرعي لأولاد عمه الأقرين أولاد فاطمة إلى أولاد عمه البعيدين أولاد عبد الله بن عباس . إن الأرجح أنه ترك لهم وثائق الدعوة وتنظيماتها ، لكي يقوموا بها « للرضا من آل محمد » أى لأبناء فاطمة . وقد اتخذ أبوه من قبل نفسه درءاً لحركة المختار لكي ينتقم من قاتل أخيه الحسين ، ولم يقحم ابن أخيه علياً زين العابدين في أية حركة خوفاً عليه من المصير الذي لاقاه أبوه من قبل وإخوته في سهل كربلاء . وقم ادعى الوصاية من أبي هاشم فرق متعددة كما ذكرنا من قبل ، بل انقسمت الكيمانية فرقاً ولكن أهمها كانت العباسية وصيحت فيها بعد بالعباسية الراوندية . وقد ذهبت إلى أن أبا هاشم أوصى إلى محمد ابن علي وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم وأوصى إبراهيم إلى أخيه أبي العباس السفاح (١) . وكان محمد بن علي العباسي من أذكى رجال التاريخ ، وأوفى حفظاً من البراعة والمهارة السياسية . فسرعان ما انتشرت بين الشيعة في الكوفة وخراسان دعوته الغنوصية وأن الوصية انتقلت إليه عن طريق إمام علوى هو أبو هاشم .

وفي عام ١٠٠ هـ وإتباعاً لوصية أبي هاشم ، أرسل محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أكبر أتباع أبي هاشم ميسرة أبا رباح النبال مولى الأزدي إلى العراق وأرسل محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وحيان العطار إلى خراسان . يقول اليعقوبى « فلقوا من لقوا بها وانصرفوا وقد غرماً غرماً » (٢) وقد كان هذا في عهد عمر بن عبد العزيز . ولم يكن عمر بن عبد العزيز في قسوة أسلافه ، فأحس المسلمون في عهده ببعض الحرية ولكن حين تولى يزيد بن عبد الملك عام ١٠١ هـ . بدأ مرة أخرى في مراقبة الهاشميين ، فوجه إلى خراسان سعيد بن عبد العزيز رسلاً لأبي رباح ميسرة داعية بني هاشم متكررين في زى التجار ، فدعاهم وسألهم عن حالهم . فقالوا : نحن تجار . فحلى سبيلهم فخرجوا من خراسان وقد سرت الدعوة فيها سراباً بطيئاً منظماً حتى قام سليمان بن كثير الخزازى وبعض من رجاله يدعون إلى بني هاشم سنة ١١١ هـ . وظهرت دعوتهم وكثر من أجابهم ، ثم قدم داعية آخر لمحمد بن علي وهو بكير بن ماهان فأجابه كثير من الناس إلى خلع بني أمية وبيعة بني هاشم ، وكثر أشياعهم ، ثم حين حضرت ابن ماهان الوفاة استخلف أبا سلمة حفص بن سليمان الخلال ، وهو الذى عرف فيما بعد باسم وزير آل محمد . وأرسل بكير إلى محمد بن علي ، أنه استخلف أبا سلمة الخلال ، فأقره وكتب إلى أصحابه يأمرهم بالسمع والطاعة له ، فأجابوه جميعاً إلى ذلك (٣) . ولكن خالد بن عبد الله القسرى

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٤٣-٢٤٤ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ... ص ٥٠ .

(٣) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٦٠ .

في خلافة هشام بن عبد الملك أرسل أخاه أسد بن عبد الله والياً على خراسان فأخذ جماعة منهم وقطع أيديهم وأرجلهم ثم قتلهم ، فانتكست الحركة إلى حد ما ، وفي هذه الأثناء انضم إلى الحركة العباسية أبو مسلم الخراساني .

وفي عام ١٢٥ هـ . قدم سليمان بن كثير وجماعة من وجوه الشيعة العباسية على محمد بن علي ومعهم أبو مسلم الخراساني ، فقال لهم محمد « لن تلقوني بعد وقتي هذا وأنا ميت في سنتي هذه ، وصاحبكم ابني إبراهيم مقتول » فإذا قضى الله فيه قضاءه فصاحبكم عبد الله بن الحارثية فإنه القائم بهذا الأمر وصاحب هذه الدعوة الذي يؤتيه الله الملك ، ويكون على يديه هلاك بني أمية ، ثم خرج إليهم ابنه أبا العباس - حتى رأوه وقبلوا يديه ورجليه ثم قال لهم « إن عبد الرحمن صاحبكم - يعني أبا مسلم - فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنه القائم بهذه الدولة » (١) .

وهكذا جعل العباسيون من محمد بن علي موازياً ومقابلاً لجعفر الصادق ، فإذا كانت الشيعة الإمامية يعتبرون جعفرأً ملهماً ، وأن الله أطلق على لسانه كثيراً من الغيبات ، فكذلك الشيعة العباسية أطلقت على لسان محمد بن علي الكثير من هذه الأمور المغيبة .

ومات محمد بن علي في آخر سنة ١٢٥ هـ ، فلما بلغ وجوه شيعته وفاته ، قدموا على ابنه إبراهيم وبايعوه إماماً لهم ، وهو أول عباسي أطلق عليه لقب الإمام ، فكان يدعى إبراهيم الإمام . ونسب إليه شيعته العلم اللدني ، والتنبؤ بالمستقبل . ولما ظهر أمر الدعوة قبض مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية على إبراهيم الإمام وحبسه بجران ، ولما علم إبراهيم أن مروان سيقته ، أرسل مولاه سابقاً الخوارزمي إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد بالوصية ، وأظهره على أمر الدعاة بخراسان والقباء وأمره بترك الحميمة بأرض الشراة وأن يتوجه إلى الكوفة فوراً .

وقتل إبراهيم الإمام عام ١٤٢ هـ وتوجه أبو العباس مسرعاً إلى الكوفة إلى وزير آل محمد أبي سلمة حفص بن سليمان . ولكن أبا سلمة كان يفكر في واد آخر بعد وفاة إبراهيم الإمام ، كان عهده - فيما يبدو - لإبراهيم الإمام فقط . وكانت الدعوة « للرضا من آل محمد » وهذا يعني لأبناء فاطمة في نهاية الأمر . وخشى أبو سلمة من انتفاض أمر الشيعة - بعد وفاة إبراهيم الإمام . فحين وصل أبو العباس السفاح وأهل بيته أخفاهم في الكوفة ، وراسل الإمام جعفرأً الصادق وعبد الله الحسن . ورفض جعفر الصادق أن يكون له في الأمر شيء وتلاحي مع عبد الله بن الحسن حين أراد الأخير أن يبايع آل بيت الرسول لأبنة محمد بن عبد الله - وبينما أبو سلمة في انتظار رسله لجعفر الصادق ولمحمد بن عبد الله ،

إذ يجامعة من شيعة خراسان يخرجون أبا العباس السفاح إلى مسجد الكوفة الجامع ويبايعونه بالخلافة ،  
ورضخ أبو سلمة وبايع .

وتبين لنا من هذا أن شيعة خراسان آمنوا بالوصاية العباسية فحين علموا أن إبراهيم الإمام قد مات  
سألوا : لمن الوصية بعد ؟ ! ! فلما علموا أنها لأبي العباس السفاح بايعوه فوراً .

ويتضح هذا الاتجاه السياسي - من خطبة داود بن علي عم السفاح إمام الخليفة الجديد على منبر  
الكوفة . . . إنه والله - أيها الناس ما وقف هذا الموقف بعد رسول الله ﷺ أولى به من علي بن  
أبي طالب ، وهذا القائم خلقي (١) .

وهذه هي النظرية العباسية الأولى في الخلافة ، لا تعترف بالشيخين وإنما ترى أن الخلافة بعد  
رسول الله إنما كانت لعل ، ويستند العباسيون الأوائل حتى عن الخليفة المهدي في هذا إلى أن العباس  
نفسه طلب من علي أن يمد يده لبايعه قائلاً : « يا ابن أخي - هلم إلي أن أبايعك ، فلا يختلف عليك  
إثنان » .

غير أن الخليفة المهدي - محمد بن عبد الله بن جعفر المنصور - أعلن نظرية سياسية جديدة تنكر  
أحقية علي وتنكر الوصية وتستند على الإرث . أنكر المهدي انتقال الإمامة للعباسيين عن هذا الطريق  
الغنوصي خلال محمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم . بل قرر أن الإمامة بعد الرسول ﷺ كانت للعباس  
ابن عبد المطلب وكان العباس عمه ووارثه وأولى الناس به . والخلفاء الأربعة كانوا غاصيين متوثبين .  
فعدد المهدي الإمامة للعباس بن عبد المطلب ، وقد أنشد أحد شعراء العباسيين هذه النظرية الجديدة  
التي تستند على الإرث فقال :

أني يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وورثة الأعمام  
ثم عقدها المهدي بعد العباس لعبد الله بن العباس - عالم الأمة وحرها ، ثم عقدها بعد عبد الله  
لابنه علي المعروف « بالسجاد » عند العباسيين ، ثم لمحمد بن علي ، ثم لإبراهيم « الإمام » وعقدها  
إبراهيم الإمام لأخيه عبد الله أبي العباس ، ثم لأخيه أبي جعفر المنصور ، ثم عقدت للمهدي  
نفسه (٢) .

ونحن نتساءل : ما الذي دفع المهدي إلى إعلان هذه النظرية الجديدة ؟ كان المهدي تقياً متديناً ،  
ونحن نعلم أنه تتبع الزنادقة ، وقتلهم حينما كانوا ، كما تتبع الغلاة من المنصورية والحنافيين ، وقتل  
الحسين بن منصور العجلي . ومن المرجح أن الفكرة الغنوصية التي تبنتها الكيسانية ومن خلالها نفذت

(١) اليعقوبي : تاريخ ج ٣ ص ٨٧ ، ٨٨ ، والسعدي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٨٥ .

(٢) النوبختي : الشيعة ص ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

إلى الدعوة العباسية أفلقت الرجل كثيراً ، فرأى فكرة انتقال الوصية إلى العباسيين خلال أسطورة العلم السرى المنسوب إلى أبي هاشم بن محمد بن الحنفية إنما تشبه تماماً انتقال الوصية إلى أبي منصور العجلي وغيره من الغلاة ، وقد جعل هو حياته وفقاً على محاربة هذا الاتجاه الغنوصي ، فرأى ابتداء نظرية سياسية تستند على الفقه وتلمس فيه مصدراً لأحقية البيت العباسي بتولي الخلافة . ووجد في نظرية «الوراثة الإسلامية» مخرجاً له ومستنداً . فأقرب الناس إلى محمد ﷺ وأحقهم بوراثة الإمامة بعد الرسول هو عمه العباس لا ابن عمه علي ولا أولاد فاطمة ، لأنه عمه ووارثه وعصبته ، لقول الله عز وجل «وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله» (١) . ثم إذا أخذنا بمبدأ الوصية . فإن تولى المهدي للخلافة يكون بدون مسوغ ، لقد أوصى أبو العباس السفاح لأخيه المنصور ثم لابن أخيه عيسى ابن موسى من بعده ، ولكن المنصور ألغى هذه الوصية ، واستخلف ابنه المهدي . فكان لابد للمهدي من أن يضع نظرية تدعم خلافته ، وهي أن الخلافة «إرث» وهو وارثها عن أبيه ، مادامت أحقية الخلافة لمن هو أقرب الناس للخليفة ، فإن كان العباس بن بعد المطلب أقرب الناس للرسول وبالتالي هو أحق بالخلافة من علي ، فالمهدي أقرب الناس للمنصور ، وهو أحق بالخلافة من عيسى بن موسى .

وقد انقسمت العباسية المعتدلة فعلاً في أيام المهدي إلى فريقين : فريق آمن بتقديم المهدي وانضوى تحت إمامته ، وفريق آخر ثبت على إمامة عيسى بن موسى وأنكر إمامة المهدي ، وأجراه في ولد عيسى (٢) .

وكان يجمع شيعة بني العباس اسم الراوندية - ويبدو أن الراوندية نسبة إلى عبد الله بن عمرو بن حرب الكندي الراوندي ، وكان يذهب إلى أن روح الله تناسخت في الأنبياء والأئمة إلى أن انتهت إلى أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، ثم انتقلت إليه (٣) ، ويبدو أنه بعد وفاة عبد الله بن عمرو حرب انضم أتباعه إلى الكيسانية - والتفوا جميعاً حول الإمام العباسي ولكن غلب الاسم الراوندية على شيعة بني العباس .

ويذهب المسعودي «إلى أن من تأخر من الراوندية وانتقل وتجر عن جملة الكيسانية القائلة بإمامة محمد بن الحنفية - وهم الحريانية أصحاب أبي مسلم عبد الرحمن بن محمد صاحب الدولة العباسية - وكان يلقب بحريان - أن محمد بن الحنفية هو الإمام بعد علي بن أبي طالب ، وأن محمداً أوصى إلى

(١) المسعودي : مروج ج ٣ ص ١٦٦ .

(٢) التوحيدي : فرق الشيعة ص ٥٠-٥١ .

(٣) البغدادي : الفرق ص ١٤٩ .

ابنه أبي هاشم ، وأن أبا هاشم أوصى إلى علي بن عبد الله بن العباس . . . إلى أن انتهت الوصاية إلى أبي عبد الله السفاح .

وهنا تقابلنا شخصية أبي مسلم الخراساني . ولقد أحاط الغموض بهذه الشخصية الكبرى في تاريخ الإسلام . هل هو أعجمي أم عربي أم كردي ؟ هل هو من نسل بني العباس أنفسهم أم هل هو ابن لسليط بن عبد الله بن العباس أم هو مولد ؟ هل هو شخصية سياسية حربية ، أم هو وجه غنوصي استخدم الغنوص القاسم القائم المكبوت في خراسان البعيدة عن موطن الخليفة دمشق . أم أنه كل هذا - وأنه استخدم التقاء من المسلمين ، كما استخدم الغنوص ، وجذب إليه العرب كما جذب إليها علوج العجم ، وخرج بهذا كله ليقصى على دولة بني مروان وقيم أعظم دولة عرفتها العصور الوسطى . وهي دولة العباسيين . وفعل كل ما أراد ، ثم مات ميتة دنيئة في غدر وخسة على يد الخليفة الوحشي أبي جعفر المنصور بعد أن وطأ له ملكه ؟

إننا لا نرى غلواً في أيامه أو حركات ناشرة في خراسان أو عقائد غنوصية تظل ظاهرة باسمه . ولكن بعد موته ، قام بعض الراوندية وأعلنوا أن المنصور إله وأبا مسلم نبي ، وأنه يعلم سرهم ونجواهم . ولعلهم استندوا في هذا إلى خطبة المنصور نفسه بعد مقتل أبي مسلم «أيها الناس لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشية المعصية ، ولا تسروا غش الأئمة ، فإن من أسرغش إمامه أظهر الله سريرته في فلتات لسانه ، وسقطات أفعاله ، وأبداها الله لإمامه (١) ، وأعلنوا أيضاً أن أبا مسلم نبي مرسل ، ولما بلغ المنصور قولهم ، وقبض على جماعة منهم وطلب منهم التوبة أبوا وقالوا للمنصور ربنا يقتلنا شهداء ، كما قتل أنبياءه ورسله ، فقتل المنصور الكثيرين منهم (٢) .

ولكن تحركت فرقة «الأبي مسلمية أو المسلمية» في خراسان على يد الحرورية - نسبة إلى خرم آباد قرية من قرى الري كان يسكن فيها الغلاة - وأعلن البعض منهم أن أبا مسلم لم يموت ولن يموت ، بل سيظهر ويملا الأرض عدلاً . وقطعت فرقة أخرى بموته ونادت بإمامة ابنته فاطمة بل وبتأليها وسمى هؤلاء بالفاطمية - اجتمعوا جميعاً تحت قيادة «يستفاد» أو «سبأذ» واستولوا على الري فقاتلهم المنصور وقتل معظم جيش يستفاد عام ١٣٨ هـ (٣) . ثم قامت الأبو مسلمية مرة أخرى بقيادة استاذيس . وقد قتل عام ١٤٩ وكان أيضاً خرمياً .

ما هي آراء الحرورية ؟ ، يرى النوبختي أن بدء الغلو كان منهم ، وأن الكيسانية والعباسية والحارثية

(١) النوبختي : الشيعة ص ٥٢ المسعودي : مروج ج ٣ ص ٢١٩ .

(٢) النوبختي : فرق الشيعة ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) المسعودي : مروج ج ٣ ص ٣٢٠-٣٢١ .

انتهت إليهم . ويسميه أحياناً الخرمدينة .

وقد أعلنوا أن الأمة آفة وأنهم أنبياء ورسول وملائكة . وأن الحرمة أول من تكلم في الأظلة والتناسخ والدور في هذه الدنيا . وأبطلوا العقائد الإسلامية - القيامة والبعث والحساب . وقالوا إنه لا دار إلا هذه الدنيا ، وفسروا القيامة بأنها خروج الروح من البدن ودخوله في بدن آخر غيره ، إن خيراً فخيراً وإن شراً فشرّاً . وأنهم مسرورون في هذه الأبدان أو معذبون فيها . وأن الأبدان هي الجنات وهي النار . الأولى هي الإثابة في الأجسام الحسنة الإنسية المنعمة في الحياة والثانية هي العذاب في الأجسام الرديئة المشوهة من كلاب وقرود وخنازير وحيات وعقارب وخنافس ، محولين من بدن إلى بدن ، معذبين فيها هكذا أبد الأبد ، فهي الجنة والنار - « لا قيامة ولا بعث ولا جنة ولا نار غير هذا على قدر أعمالهم وذنوبهم وإنكارهم لأنتمهم ومعصيتهم لهم ، فإنما تسقط الأبدان وتخرب ، إذ هي مساكنهم فتلاشى الأبدان وتفتنى وترجع الروح في قالب آخر منعم أو معذب » ويرى التوحيطي أن هذا هو معنى الرجعة عندهم ، فالأبدان قوالب ومساكن بمتلة الثياب التي يلبسها الناس فتبل وتطرح ويلبس غيرها وبمتلة البيوت يعمرها الناس فإذا تركوها وعمرها غيرها ، خربت ، والثواب والعقاب على الأرواح دون الأجساد ثم تأولوا هذا كله في ضوء القرآن - فأوردوا لتدعيم فكرتهم الآية « في أي صورة ماشاء ركبتك » وقوله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُمّ أمثالكم » وقوله « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » فجميع الحيوانات إذن من طير ودواب وسباع كانوا أمماً مصداقاً للآية القرآنية ، خلت فيهم النذر من الله تعالى ، واتخذهم عليهم الحجة ، فأما من كان صالحاً ، فقد جعل الله روحه بعد وفاته وإخراجه قلبه وهدم مسكنه في جسد صالح ، وهذا هو النعيم ، ومن كان منهم كافراً عاصياً ، نقل روحه إلى جسد خبيث مشوه يعذبه فيه بالدنيا ، وجعله في أقيح صورة وأنن رزق وأقذره . ولقد فعل الخرمدينة هذا في ضوء التفسير الغنوصي للقرآن . فتأولوا الآية « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربي أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ، فيقول ربي أهانن » فكذب الله تعالى هؤلاء ، ورد عليهم في قولهم لمعصيتهم إياه فقال : « كلا بل لا تكرمون النيم : والنييم هو النبي ﷺ ، ولا تحاضون على طعام المسكين : وهو الإمام وتأكلون التراث أكلاً لما ، ولا تخرجون حق الإمام مما رزقكم وأجراه لكم (١) » .

وهكذا فسر الحرمة الآيات القرآنية ، تفسيراً غنوصياً بحتاً ، مازجين العقائد الثنوية القديمة - مانوية ودبصانية وماندائية وبما تحتويها من عناصر أفلاطونية وفيثاغورية محدثة بالإسلام أو بالعقيدة الشيعية في بني العباس .

(١) التوحيطي : الشيعة ص ٣٧-٣٨ .

ونلاحظ أن هذه الفرقة ميمية ، لأن عنصرها الأول الوجودى هو محمد ﷺ ، ثم تفرع عنه عمه العباس وأولاده حتى انتهى الأمر إلى أبى مسلم الخراسانى . ونلاحظ أيضاً أنه لا توجد هنا دعوى للألوهية ، وإنما هم يؤمنون فقط بالتناسخ ، ويسميه الملقب أصحاب التناسخ ، ويعتبرهم فرقة من الحلولية ويفسر مذهبهم « بأن الله عز وجل نور على الأبدان والأماكن ، وأن أرواحهم متولدة من الله القديم ، وأن الجسد لباس لا روح فيه ولا ألم عليه ولا لذة له ، وأن الإنسان إذا فعل الخير ومات ، انتقلت روحه إلى حيوان ناعم ، يتنعم فيه ، ثم يرجع إلى جسم الإنسان بعد مدة ، وإذا فعل الشر ومات ، صارت روحه في بدن حمار ذبر أو كلب جرب يعذب فيه مدة ثم يعود إلى جسم الإنسان ، ولم تزل الدنيا هكذا ، ولا تزال تكون هكذا» (١) .

نستتج من هذا أن الكيسانية تحولت في خراسان إلى عباسية راوندية ، أى «العباسية الخالص» . ثم أتى الدعاة السريون من كل مكان واستخدمهم أبو مسلم الخراسانى - على مختلف مشاربيهم ، وبجمعهم جميعاً اسم الراوندية - والسودة «للبسهم السوداء» - وسار هذا الخليط ليقضى على بنى أمية . ولعل هذا ما دعا نصر بن سيار عامل مروان بن محمد على خراسان في قصيدته المشهورة للخليفة مروان بن محمد في حران ، أن يذكر أن الحركة ستقضى على العرب والإسلام ، وقد تبين له ما فيها من عقائد سرية غنوصية متناقضة ، وما يجمع جيش أبى مسلم من أجناس متعددة متباينة :

أرى بين الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى	وإن الحرب أوطأ الكلام
فإن لم تطفئوها تجن حرباً	مشرة يشيب لها الغلام
أقول من التعجب ليت شعرى	أيقاظ أمية أم نيام
فإن بك قومنا أضحوا نياماً	فقل قوموا فقد حان القيام
ففرى عن رحالك ثم قولى	على الإسلام والعرب السلام (٢)

وكان أبو مسلم الخراسانى واسطة العقد بين هؤلاء جميعاً ، فلما قتل أبو مسلم توزعت العباسية الراوندية : فجمهرة شيعة خراسان بقيت على ولائها للمنصور ، والرزامية - وأصل مذهبها الكيسانية فيما يقول النوبختى - أقامت على ولاية أسلافها وولاية أبى مسلم سراً (٣) .

ويرى البغدادي أنهم قوم بمرو أفرطوا في ولاية أبى مسلم الخراسانى وأنهم اعتقدوا أن الإمامة انتقلت إليه بعد أبى العباس السفاح (٤) ويبدو أن أبى مسلم كان يغذى هذه الفرقة ويؤمن بآرائها «لأنهم ساقوا

(٣) النوبختى : الشيعة من ٣٧ - ٣٨

(١) الملقب : التنبيه .. ص ٢٩ .

(٤) البغدادي : الفرق من ١٥٥ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ من ٢٠٢ .

الإمامة إليه» (١) ثم إن مجموعة الرزامية أقرت بقتله ، غير فرقة هي الأبو مسلمية تعالت فيه أشد الغلو وقالوا له حظ من الإمامة وأن روح الإله حلت فيه وأنه خير من جبرائيل وميكائيل وسائر الملائكة وهو حتى لم يمت وهم على انتظاره . ويقول البغدادي «وهؤلاء بمرورهم وهرارة يعرفون بالبركوكية ، فإذا سئل هؤلاء عن الذي قتله المنصور قالوا : كان شيطاناً تصور للناس في صورة أبي مسلم» (٢) .

وقد تنبه الشهرستاني إلى حقيقة أبي مسلم الخراساني فيقول : «كان على مذهب الكيسانية في الأول ، اقتبس من دعواتهم العلوم التي اختصوا بها ، وأحسن منهم أن هذه العلوم مستودعة فيهم ، فطلب المستقر فيه» أي أنه تنبه إلى أن محمد بن الحنفية وأولاده ثم العباسيين من بعدهم كانوا الأئمة المستودعين ، وكان أولاد فاطمة ، هم الأئمة المستقرين فهل عرفت نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر وهي نظرية غالية - إبان ذلك الوقت ؟ وهناك رواية تذكر أن أبا مسلم أنفذ إلى الإمام جعفر الصادق «إني قد أظهرت الكلمة ، ودعوت الناس عن موالاته بني أمية إلى موالاته أهل البيت ، فإن رغبت فيه ، فلا مزيد عليك» فكذب إليه جعفر الصادق «ما أنت من رجالي ولا الزمان زمانى» . فحينئذ حاد إلى أبي العباس بن محمد وقلده الخلافة (٣) .

ونحن نعلم أن أبا سلمة الخلال - هو الذي فعل هذا ، ولكن من المحتمل أيضاً أن يكون أبو مسلم - وهو كيساني في حقيقته - قد فهم تماماً أن وصية أبي هاشم لمحمد بن علي العباسي إنما كانت للدعوة «للمرضى من آل محمد» أي لأبناء فاطمة وأن إبراهيم الإمام قد أسر بهذا لأبي مسلم ، وأن الدعوة السريين إنما كانوا «يدعون للمرضى من آل محمد» وكان يفعل هذا أيضاً عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب ، معلناً أنه يدعو للمرضى من آل محمد ، ثم استقل بنفسه . من المحتمل كثيراً أن الدعوة كانت تركز حول الفواطم من أول الأمر ، فهل لعبت فكرة الإمام المستودع والإمام المستقر دورهما ؟ فالدعوة لإبراهيم الإمام المستودع ، حتى تنقل فيما بعد إلى الإمام المستقر سواء كان جعفر الصادق أو غيره من أبناء فاطمة . وهل ظهرت حقاً هذه الفكرة في حركة المختار؟ فالمختار بن أبي عبيد كان يعمل باسم محمد بن الحنفية ، ولكن لتدعيم إمامة علي زين العابدين في آخر الأمر ، وقتل المختار قتلة الحسين باسم محمد بن الحنفية وحارب باسمه ، وذلك حفاظاً على البقية الباقية من أولاد فاطمة أن يسهم سوء إذا ما فشلت الحركة ، ونحن نجد أيضاً صالح بن علي يقتل بني أمية ، ويعلن أنه يفعل هذا انتقاماً لمقتل الحسين بن علي وزيد بن علي بن الحسين في حديثه مع ابنة مروان الكبرى (٤) . إنني أستبعد ظهور نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر إبان هذه الأوقات جميعاً . من المحتمل أن الفكرة - فكرة الإمام

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٩ .

(٤) المسعودي : ج ٣ ص ١٣ ص ٢٠٦ .

(١) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) البغدادي : الفرق ص ١٥٥ .

المستودع والإمام المستقر - قد تحققت صورتها ومادتها في حركة المختار وفي حركة العباسيين ولكن بغير أن تصاغ هذه الصياغة المنهجية في نظرية : كما كانت نظرية الإسماعيلية المتأخرة .

حقاً إننا نرى أنه حين جمع عبد الله بن علي الأمويين بنهر أبي فطرس بين فلسطين والأردن ، وعلموا أنه سيقتلهم جميعاً ، استعطفوه واسترحموه بالقرابة والرحم فقال « هيبات ، قطع ذلك قتل الحسين » (١) . ولكن العباسيين لم يكونوا أبداً عملاء لبني فاطمة ، ولم يفكروا قطعاً في نقل الخلافة إليهم ، فالحركة العباسية إذن إنما كانت في أول الأمر تدعى أنها تعمل لبني فاطمة تحت اسم الرضا من آل محمد ، ولكنهم استقلوا بالأمر دونهم في آخر الأمر . من المحتمل كثيراً أن يكون أبو مسلم قد عرف هذا ، فلما رأى جعفر الصادق يرفض الأمر ويأباه وتحول الأمر إلى بني العباس ، رأى أن يدعو إلى نفسه ، وأن يمهّد السبيل للأمر . وهذا سر ازدرائه لأبي جعفر المنصور في حياة السفاح ، ولعله كان يأمل في القيام بانقلاب في خراسان يتولى به هو خلافة المسلمين ، ولكن المنصور كان من المهارة السياسية والحكمة بحيث تمكن من اغتياله ، ثم القضاء على حركة تابعيه سبأذ أو استفاد واستاذيس (٢) . وبقيت الحركة كاملة . والغنوص يعمل في أنحاء خراسان حتى ظهر في أشع صورة عند المقنع الخراساني وفي عهد ابن المنصور الخليفة محمد بن عبد الله الملقب بالمهدي . وقد نسبت فرقة إليه فسميت بالمقنعية . وقد اختلف في اسم المقنع ، فقيل هو عطاء وقيل هو هاشم بن حكيم الروزي كان قصاراً من أهل مرو . ويبدو أنه كان ينتمي إلى الرزمية في بادئ الأمر - أي أنه كان كيسانياً كأبي مسلم والمقدسي يوضح هذا فيقول إن المقنع كان يؤمن بأن روح الله التي كانت في آدم تحولت إلى آدم ثم تابعت في الأنبياء ثم تحولت إلى محمد بن الحنفية (٣) ثم إليه هو فهو كيسانى ثم اعتنق الرزمية وكان من دعاة السريين ، وأخلص لأبي مسلم ، وقد تعلم المقنع العلوم السرية وكان من عادة الدعاة السريين معرفة الهندسة والحيل والتريجات والكيمياء (٤) .

وقتل أبو مسلم الخراساني وبقى الرجل يبيث دعوته في عهد المنصور ، ولكنه خشى الظهور أو لم تكن دعوته قد نضجت حينئذ . ثم أعلنها ، يقول ابن خلكان إنه ادعى الربوبية على طريق المناسخة ، أي أن النور الإلهي حل فيه عن طريق التناسخ . أما هذا الطريق التناسخي فكان كالأبى : انتقل النور إلى صورة آدم - ولذلك قال الله للملائكة « اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى » فاستحق لذلك

(١) اليقوى : تاريخ ج ٣ ص ٩٢ .

(٢) اليقوى : تاريخ ج ٣ ص ١٠٤ .

(٣) المقدسى : البدء والتاريخ ج ٦ ص ٩٧ .

(٤) ابن خلكان : وفيات ج ١ ص ٥٧٣ ؛ والبيروني : الآثار الباقية ص ٢١١ .

السخط ولم يتنبه المؤرخون المسلمون إلى أن هذه هي فكرة الخلافة المشهورة «إني جاعل في الأرض خليفة» ، وقد أثرت هذه الفكرة في الصوفية الفلسفية ، وهي تستند أيضاً على الحديث الموضوع ذى الصبغة اليهودية «خلق الله آدم على صورته» وهي فكرة غنوصية مستمدة من فيلون الفيلسوف اليهودي . ثم أعلن المقنع أن الصورة الإلهية تحولت إلى نوح ثم إلى صورة واحد واحد من الأنبياء والحكماء ولعل قوله بأن الروح تناسخت في الحكماء دليل على معرفته الواسعة بالفلسفة والغنوص - ثم يقرر أنها تحولت إلى صورة أبي مسلم ثم ظهرت فيه هو (١) .

أما البغدادي فيعرض المذهب في صورة أخرى ، فيصه بالبيت العلوي . وأنه يزعم لأتباعه أنه هو الإله ، وإن كان قد تصور مرة في صورة آدم ، ثم تصور في وقت آخر بصورة نوح ، وفي وقت آخر بصورة إبراهيم ثم تردد في صورة الأنبياء إلى عماد ، ثم تصور بعده في صورة علي ، وانتقل بعد ذلك في صور أولاده ، ثم تصور بعد ذلك في صورة أبي مسلم ، ثم إنه زعم أنه في زمانه الذي كان قد تصور بصورة هشام بن حكيم . وكان اسمه هشام بن حكيم . وقال : إني إننا أنتقل في الصور لأن عبادي لا يطيقون رؤيتي التي أنا عليها ، ومن رأى احترق بنوري (٢) .

من الواضح إذن أنه لا يقول بألوهية هؤلاء ولا بألوهيته هو ، وإنما هو غنوصي يؤمن بالحقيقة المحمدية ، وأنها انتقلت من نبي إلى نبي ، حتى انتهت إليه ، وهي نظرية طالما رأيناها لدى غلاة الشيعة الغنوصيين ، ونراها في نفس الصورة التي ظهرت عند المقنع لدى البهاء مؤسس البهائية الحديثة ، وقد تنقع هو أيضاً ، خوفاً على أتباعه من أن يحرقهم سبحات الوجه . فاللذهب إذن مزيج من فلسفة غنوصية ومسيحية ويهودية وإسلام .

ويرى ابن خلكان أن قوماً قبلوا دعواه وحاربوا دونه «مع ما عاينوا من عظيم ادعائه وقبح صورته ، لأنه كان مشوه الخلق أعوراً لكن قصيراً ، وكان لا يسفر عن وجهه ، بل اتخذ وجهاً من ذهب وفتنع به ، فلذلك قيل له المقنع» ويرى أنه أثر فيهم بالسحر والشعوذة والتخويات ، بل يبدو أن الرجل كان يستخدم الحيل الفلكية والهندسية ، بحيث صنع «قراً» يطلع ويراها الناس من مسافة شهر من موضعه ، ثم ينبغي فعظم اعتقادهم فيه . وقد ذكر هذا القمر أبو العلاء المعري فقال :

أفق إنما البدر المقنع رأسه ضلال وغى مثل بدر المقنع  
وكذلك ذكره سناء الملك :

إليك فما بدر المقنع طالما بأسحر من ألاحظ بدر المعمم

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٥٣ .

(٢) البغدادي : الفرق ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

وقد افتن الناس به وأقبلوا على قريته بمرو «كازه كيمن دات» فبنى حصناً كبيراً بناحية كسن ونحشَب يقال له سيام وأقبل إليه عدد كبير من أهل الصغد والأتراك الخلجية (١) ، واحتجب عن الناس كما قلت بقناع من ذهب أحياناً ومن حرير أحياناً أخرى وكون لأتباعه مجتمعاً إباحياً ، فحرم عليهم القول بالتحريم ، وأسقط عنهم الصلاة والصيام وسائر العبادات . وانضم إليه كثيرون من كفرة الأتراك الخلجية ودامت فتنته أربعة عشر عاماً يغير على المسلمين ويقتل وسبي . وكان أتباعه يلبسون الملابس البيض ، وسمو بالمبيضة لبيضهم ثيابهم مخالفة للمسودة من العباسيين .

وأرسل إليهم المهدي قائده معاذ بن مسلم في سبعين ألفاً من المقاتلة ثم أتبعه بقائد آخر هو سعيد بن عمرو الجرشي فقاتلهم هذا الآخر سنوات قتالاً عنيفاً . وكان المقنع يحيط بحصنه خندق كبير ، وقاتل جنده من وراء خندقه ، ولما عبر المسلمون الخندق استأمن من جند المقنع ثلاثون ألفاً ، خلا من قتل من قبل ، ولما أحس المقنع بالنهاية ، جمع نساءه وسقاهاهم السم ، فتن منه ، أما هو فقد أحرق نفسه في توركان قد أعدده ، وأذاب النحاس مع القطران ، حتى ذاب فيه . وقد افتن به أصحابه بعد ذلك حين لم يجدوا له جثة ولا تراباً . وزعموا أنه صعد إلى السماء .

ويرى البغدادي أنه حتى عصره هو - أي القرن الخامس الهجري - كان أتباع المقنع ينتشرون في جبال إبلان بخراسان ، ولهم في كل قرية من قرى خراسان مسجد لا يصلون فيه ، وهم يستحلون الميتة والخنزير ، وأنهم يعيشون معيشة إباحية ، فيستمع الرجل منهم بامرأة غيره . ويرى أيضاً أنهم يقتلون المسلمين خفية ، أي أنهم نوع من الخناقين . ولكنه يرى «أنهم مقهورون بعامّة المسلمين في ناحيتهم» (٢) .

ثم ظهر فيروز - حفيد أبي مسلم - ثم بابك وكان في أرجح الأقوال من نسل أبي مسلم . غير أن ابن النديم يعطينا صورة عن أبي مسلم الخراساني تختلف عن صورة الرجل الذي بمالئ الغنوصية ويذهب إليها ، بل على العكس ، إنه يجارها ويقضى عليها . فيخبرنا أنه ظهر في صدر الدولة العباسية ، وقبل تولي أبي العباس السفاح للخلافة ، رجل يقال له فريد من قرية روى من أبر شهر ، وكان فريد مجوسياً «يصلى الصلوات الخمس بلا سجود ، تياسر عن القبلة أي أنه وضع صلاة خاصة ، وألغى الصلاة نحو القبلة ، ثم تكهن ودعا الجحوم إلى مذهبه ، فاستجاب له خلق كثير . فوجه أبو مسلم الخراساني - شيب بن داح وعبد الله بن سعيد ، فعرضاً عليه الإسلام ، فأسلم وسود ،

(١) ابن خلكان : وفيات ج ١ ص ٥٧٣ .

(٢) البغدادي : الفرق ص ١٥٦ ، والبيروني : الآثار ص ٢١٠ .

أى انضوى تحت لواء جيش أبى مسلم . ولكن أبى مسلم لم يقبل إسلامه لتكهنه فقتله . ويذكر ابن النديم أنه إلى وقته كان على مذهبه جماعة بخراسان .

ويذكر لنا ابن النديم أيضاً أن الأبى مسلمية هى من الاعتقادات التى حدثت بخراسان ، وأنها ظهرت بعد مقتله ، فقد حدث بعد قتل أبى مسلم أن هرب دعائه والمثفون به إلى مختلف البلاد ، معلنين إمامته وأنه ما زال حياً يرزق ويخص بالذكر منهم رجلاً يعرف بإسحق الترك ، فإنه رحل إلى بلاد ما وراء النهر ، وادعى أن أبى مسلم محبوب فى جبال الرى ، وأنه سيخرج فى وقت حدده لهم . حاكياً فى ذلك لقول الكيسانية فى محمد بن الحنفية .

ويذكر ابن النديم أنه إسحق الترك هذا ، فى بعض الروايات علوى من ولد يحيى بن على ، وأنه خرج إلى بلاد الترك فاراً من بنى أمية ، ثم تتر بمذهب الأبى مسلمية ، وفى روايات أخرى أنه رجل من وراء النهر ، وكان أسياً ، وله تابع من الجن ، فكان إذا سئل عن شىء ، أجاب بعد ليلة ، فلما قتل أبو مسلم ، دعا الناس إليه ثم تحول إلى الزرادشتية ، وادعى أن «زرادشت حى» وأصحابه يعتقدون أنه حى لا يموت ، وأنه يخرج حتى يقيم الدين لهم ، وهذا من أسرار الأبى مسلمية . فكان هذه الروايات الأخيرة تقول إن الأبى مسلمية هى بقايا المجومس من زرادشتية ومزدكية (١) .